الفصل السادس

انسف حَمَّامَك القديم

تزايد اعتماد أمريكا على محمد رضا بهلوي في مقارعة الشيوعية، ليس في الشرق الأوسط فَحَسْب، بل امتد الأمر لمناطق أخرى مثل جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا وغيرهما من المناطق.

ففي عام ١٩٧٢م، أرسل الشاه قوةً جويَّةً من طائرات الفانتوم لمساندة نظام فان ثيو الموالي لأمريكا في فيتنام الجنوبية ضد قوات الجبهة الوطنية الشمالية، وكان الشاه كعادته عند حسن ظن سيد البيت الأبيض به.

وفي استعراض لقوته الضاربة، اشتركت طائرات مروحية من سلاح الجو الإيراني مع نظيراتها في الجيش الباكستاني لقمع مسلحي الحركة الانفصالية البلوشية في الشطر الباكستاني لإقليم بلوشستان الحدودي ذي الأكثرية السُّنيَّة؛ ليرسل رسالةً للسُّنَّة المقهورين في هذا الإقليم، أنَّ أيّ محاولة لفرض إرادتهم على النظام البهلوي بإقامة حكم ذاتي أو السعي للانفصال ستُقَابَل بالحديد والنار.

وحصل الشاه على مكافأتين من أمريكا على إطاعته الأوامر:

الأولى: تأسيس الحكومة الإيرانية شركة صناعة الطائرات الإيرانية بالاشتراك مع مؤسسة نورثروب، وكانت الخدمات الفنية والتسهيلات تقدم من شركتي لوك

هيد وجنرال إليكتريك، هذا قبل أن تشترى الحكومة الإيرانية حصة الشركة الأمريكية في نفس العام، وقد ترأس هذه المؤسسة كيرميت روزفلت صديق الشاه القديم، والعقل المدبر لانقلاب ١٩٥٣م.

الثانية: تدريب الطيارين الإيرانيين على طائرات الفانتوم في مطار ديزفول الإسرائيلي على طائرات الفانتوم على أيدى خبراء أمريكيين وإسرائيليين.

وفي مجال القوة الجوية أيضًا كان أكثر ما حصل عليه الشاه من طرز الطائرات هي الطائرات المروحية وهي طائرات أمريكية صنعتها شركة أجوستا الإيطالية، وكذلك طائرات مقاتلة من طراز سي كوبرا، وكذلك طائرات لنقل الجنود، وطورها الشاه بوضع صواريخ تاو عليها.

وحصل الشاه في نفس العام أيضًا على طائرات إف٥ بصواريخ سنايدور، ومائتين واثنتين طائرة سمتية من طراز بيل إيه إتش، إضافةً لعدد من الطائرات اشتراها الشاه لطيران القوات البحرية، وست عشرة حوامة بريطانية كان بعضها مُحَمَّلًا بالصواريخ.

ولم يَفُت الشاه أن يطور سلاح البحرية؛ فَزَوَّدَه بست مدمرات من طراز سبراونس من إنتاج شركة ليتون بكلفة مائة وعشرة ملايين دولار، وهذا الطراز من المدمرات الأمريكية مزود بشبكة اتصال ونظام سيطرة وقوة دفع بواسطة توربين.

اشترى الشاه كذلك عددًا من صواريخ (أرض- أرض) لتسليح البوارج التي حصل عليها من بريطانيا، بالإضافة إلى أربع مدمرات بريطانية من طراز مارك ٧

ومدمرتين أمريكتين من طراز Allen Summer تم تحديثهما، وصواريخ كونترافس سي كيلر لتسليح البوارج المشتراة من بريطانيا.

وساعد الغرب الشاه في بناء مصانع ضخمة للعتاد في أصفهان، وذلك بالتعاون مع بريطانيا التي رصدت لهذا المشروع سبعمائة مليون جنيه استرليني، واتفق الطرفان على إنشاء مصنع آخر لإنتاج الدبابات من طراز جفتن.

لم يكن ما قدمه الغرب -وتحديدًا أمريكا- للشاه دون مقابل، فالدول الكبرى ليست مؤسسات خيريةً، ولكل شيء عندها ثمن، وثمن ما حصل عليه الشاه كان باهظًا، لكن لا مناص من دفعه؛ حتى لا يستبدل بعميل آخر.

كان أول ثمن دفعه بهلوي كان دوس السيادة الوطنية لإيران بأقدام الغرب، وثانيها كان حصول الولايات المتحدة على عشرين في المائة من احتياجاتها النفطية مقابل صفقات السلاح، وثالثها تأمين مضيق هرمز بما يخدم مصالح الولايات المتحدة في الخليج، ورابعها إنهاك العراق بالصراع مع الأكراد وإلهائه عن لعب دور فاعل لصالح العرب في صراعهم مع الدولة العبرية، وخامسها الانتقال بالعلاقات الإيرانية الصهيونية لمرحلة التحالف وقد التزم الشاه بشروط سيده، لكن تعطشه للقوة أوقعه في مأزق.

لم يتوقف طلب الشاه للسلاح عند الغرب، بل توجه الشاه للاتحاد السوفيتي مرة أخرى واشترى منه ناقلات جند مصفحة من طراز BTR ٥٠ و BTR٦٠، هذا بالإضافة إلى أن المضادات والدفاعات الجوية كانت بالكامل من الاتحاد السوفيتي، وصنع الشاه صواريخ مضادة للدبابات من مكونات روسية، وتجنب الشاه شراء أسلحة معقدة من موسكو حتى لا يجد نفسه مضطرًا للاستعانة

بخبراء سوفييت؛ فيثير ذلك حفيظة الولايات المتحدة داعمه الأساسي، لَكِنَّ ذلك لم يشفع للشاه لدى العم سام الذي رأى فيما فعله الشاه خطيئةً لن تمر مرور الكرام.

وعلى الصعيد السياسي، عادت العلاقات مع مصر؛ حيث عين الرئيس المصري الجديد أنور السادات سفيرًا له في طهران، وعلى الرغم من العتب الذي وجهه السادات للشاه على علاقاته مع إسرائيل، بقيت العلاقة وديةً يشوبها الاحترام بين الرجلين.

ومن منطلق التعامل بندية، قرر الشاه الدخول في مفاوضات مع شركات النفط في الثاني والعشرين من مارس ١٩٧٢م حول رفع نسبة الأرباح التي يحصل عليها من هذه الشركات؛ لتتناسب وميزانية الحكومة، وعلى وجه التحديد الميزانية العسكرية.

كما قرر الشاه أيضًا تحسين الخدمات المقدمة للسياح في جزيرة كيش، كتطوير الفنادق والنوادي الليلية، وقبل هذا وذاك نادي القمار المعلم الأهم في الجزيرة، وعُقِدَ في وقت لاحق اجتماع بين الشاه وسكرتير وزارة الخارجية البريطانية أليكس دوجلاس؛ لمناقشة قضية رفع أسعار النفط، ومع نهايات مارس ١٩٧٢م تَفَجَّرَت فضيحة كانت ملأ السمع والبصر في إيران وعلى صفحات الصحف الغربية.

فقد أُلْقِيَ القبض على الأمير هوشاج دافالو أحد أفراد العائلة في سويسرا وبحوزته خمسة وعشرون جرامًا من الهيروين في منزله، وكان دافالو نديمًا مفضلًا للشاه، ومُقَرَّبًا أيضًا من شقيقته الأميرة أشرف، ولم يستطع الأمن

السويسري استجواب الأمير؛ لتمتعه بالحصانة الدبلوماسية كونه أحد أفراد العائلة المالكة، وسُمِحَ له بالعودة على متن طائرة الشاه.

تَسَرَّب الخبر للصحافة الغربية، والتي لم تَكْتَفِ بِسَرْد تفاصيل الفضيحة، بل زادت عليه بالكشف عن الوجه الاستبدادي القبيح، بعدما نشرت قصص من قَضَوا في عمليات الإعدام الجماعي في أقبية السافاك، وكان ما جرى مسمارًا جديدًا في نعش نظام الشاه زاد من رصيد كراهية الشعب له.

ففي الوقت الذي ينفق فيه الشاه أموال شعبه في شراء الأسلحة والمخدرات وسلب البقية وإيداعها في حساباته وحسابات أسرته إما في بنك مللي إيران أو في البنوك السويسرية، فإن ثمانين في المائة من الإيرانيين يعانون من الأمية، ونسبةً أقل منهم تعيش حياةً بعيدةً تمام البعد عن المدنية، وبتفجر هذه القضية وضع الشاه دون قصد لبنةً جديدةً في بناء الثورة على حكمه، وما هي إلا أيام قليلة حتى تَلَقَّى الشاه لطمة قوية من رجل العراق القوى صدام حسين.

التاسع من أبريل ١٩٧٢م، وَقَّعَ الاتحاد السوفيتي معاهدة الصداقة مع العراق، والتي يُقَدِّم السوفييت بموجبها أسلحةً ومساعدات عسكريةً للعراق على مدى خمسة عشر عامًا، وكان ذلك ناقوس الخطر الذي دَقَّ بعنف في وجه الشاه؛ فقد خَشِي وريث عرش الطاووس أن يختل ميزان القوى في الخليج لصالح بلاد الرافدين، ويصبح العراق الصخرة التي تتحطم عليها أحلام الامبراطورية الفارسية التي يقاتل بهلوي لإحيائها؛ فألح بهلوي على أسياده في واشنطن لإمداده بالسلاح الذي سيقلب دفة الأحداث لصالحه، وهو ما سيظفر به الشاه في نهاية المطاف، وحتى يحدث ذلك استمر الشاه في ممارسة سياسة الخداع والكذب على شعبه.

الخامس عشر من مايو ١٩٧٢م، ألقى الشاه كلمة في الجلسة الافتتاحية لمجلس الشئون الاجتماعية، معلنًا قراره ببيع ثلث حصة مصانع الدولة للعمال، وكان هذا القرار استعراضيًا بالدرجة الأولى، فالشاه يعلم تمام العلم تدهور الاقتصاد الوطني، وأنَّ قرارًا كهذا لن يغير من واقع العمال المزري شيئًا، لكنه ترسيخ لوهم الفرماندة ليس إلا، وبدأ الغرب يوجه سهام نقده لعميله الفارسي كقرصة أذن للشاه على تقاربه مع السوفييت.

السادس من يونيو ١٩٧٢م، أخبر وزير البلاط (أَسَد الله عَلَم) الشاه بنشر مجلة الاقتصادي (الإيكونومست) البريطانية تحقيقًا حول تورط المحاكم العسكرية الإيرانية في إصدار أحكام جائرة ومسيسة على مناهضي الشاه، فَوَبَّخ الشاه (عَلَمًا) على وقوفه موقف المتفرج من فعل (الإيكونوميست)، وسَخِرَ منه بطلبه إرسال برقية شكر للجريدة على هذا التحقيق.

في اليوم التالي، أخبر الشاه (عَلَمًا) وهو يتناول معه العشاء أن يبلغ البريطانيين، أنَّ الصحف الإيرانية ستشن هجومًا عنيفًا على مسئولي الحكومة البريطانية؛ رَدًّا على تحقيق (الإيكونوميست)، اتركهم في بريطانيا يعترضون كيفما شاءوا، لكنها ستكون كافية لدينا في إيران للإضرار بمصالحهم.

بدأ الشاه في الثامن من يونيو ١٩٧٢م، جولةً أوروبيةً في سويسرا وبريطانيا، وخلال تواجده بمطار طهران التقى الشاه بالسفير البريطاني، ووجه له عتابًا خشنًا قال له فيه:

"لا يوجد أي داع لزيارة بلدكم مع الطريقة التي تقدمون بها إيران في بي بي سي وفليت ستريت".

أدرك السفير غضب الشاه مما وصل إلى أسماعه، وأرسل رسالةً لمكتب الخارجية البريطانية.

أرسلت وزارة الخارجية البريطانية عبر سفير البلاد في طهران اعتذارًا مُقْنعِا لـ(أَسَد الله عَلَم) لاسترضاء الشاه جاء فيه:

"إيران هي الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي يمكن أن تعتمد عليها بريطانيا، فهي أكثر دولة مستقرة، وأقوى دولة عسكرية في المنطقة، ويحكمها قائد له مواقف مشرفة".

كان لهذا التصرف من الشاه أثر لا يُنْكَر على سلوك الولايات المتحدة تجاه الشاه؛ فقد زار السفير الأمريكي (أَسَد الله عَلَم) ووافق على طلب سابق للشاه بتطوير قاعدة شاه بهار العسكرية الإيرانية، وكان الكَرَم الأمريكي حَاتِمِيًّا عندما وافقت الإدارة الأمريكية على إمداد الشاه بطائرات من طرز:

دي دي سي ١٠، لوك هيد ١٠-١٢، إف ١٥، إف ١١١، وكان هذا الخبر بَرْدًا وسلامًا على الشاه، الذي تأكد له توكيل الولايات لمتحدة له للعب دور شرطي الخليج، ومَنْحِه الضوء الأخضر لتدشين امبراطورية الفرس بما يتوافق مع طموحاته التوسعية، وفي الخامس والعشرين من يوليو ١٩٧٢م، قَدَّم نيكسون برهانًا آخر على أهمية الشاه.

رفع كيسنجر مذكرة إلى وزير الدفاع ميلفين ليرد، ذكر فيها رأي نيكسون فيما يخص تسليح نظام الشاه حيث ورد النص التالي:

"ينبغي أن تُتْرَك القرارات الخاصة بشراء المعدات العسكرية بشكل عام إلى الحكومة الإيرانية، وفي حال قررت الحكومة الإيرانية شراء معدات معينة ينبغي تشجيع المشتريات من الأسلحة الأمريكية بطريقة لبقة متى كان ذلك ممكنًا، وينبغي توفير المشورة التقنية حول القدرات التي تتميز بها المعدات المعنية".

مكسب جديد أضافه الشاه إلى رصيده، لَكِنَّ هاجِسًا كان يطارد الشاه: رحيل نيكسون عن البيت الأبيض.

بين السادس والعشرين والثامن والعشرين من يوليو ١٩٧٢م، التقى (أَسَد الله عَلَم) بالسفير الأمريكي ببرجاند، وناقش (عَلَم) مع السفير استعدادات نيكسون لانتخابات الرئاسة الأمريكية التي سَتُجْرَى بدايات نوفمبر من ذلك العام.

لم يُخْفِ (عَلَم) سِرًّا للسفير من مخاوف الشاه أن يخسر نيكسون الانتخابات ويحل محله رئيس جديد يتبع استراتيجية جديدة في التعامل مع الشاه بعدما توثقت العلاقات مع نيكسون، وأخبر السفيرُ (عَلَمَ) أن نيكسون بات ينظر للشاه على أنه الشخص الأمثل لتنفيذ الاستراتيجية الأمريكية في الخليج.

وعلى الرغم من الهدوء الظاهري للأوضاع في إيران وسيطرة السافاك على مجريات الأمور، إلا أنَّ نار السخط على نظام الشاه ظَلَّت مُتَّقِدَة تحت رماد القمع الدموي للسافاك، تبرز بين حين وآخر، حتى وصل الأمر لتعرض الصحف الحكومية بالنقد لسياسة الشاه.

الرابع من أغسطس ١٩٧٢م، ألقى الشاه كلمة في الذكرى الخامسة لإقرار قانون الأسرة، فيما عرف بيوم القانون، مُشِيدًا بهذا القانون وآثاره الإيجابية على الأسر

الإيرانية، وبعد ستة أيام فاجأه (أَسَد الله عَلَم) بما نشرته صحيفتا الحكومة (كيهان) و(اطلاعات).

نشرت الصحيفتان في العاشر من أغسطس أن إيران تتجه نحو المسار الديمقراطي الغربي؛ لاعتياد الشعب على المشاركة السياسية في المدن والقرى؛ الأمر الذي أغضب الشاه؛ فالمسار الديمقراطي الغربي في الحالة الإيرانية يعني مَلَكِيَّة دستورية، أي يصبح الشاه حاكمًا شَرَفِيًّا على النمط الإنجليزي يملك ولا يحكم، وتتركز السلطات في يد رئيس وزراء منتخب من الشعب، إنه شبح مصدق يحوم حول الشاه مجددًا.

أظهر الشاه عينه الحمراء لرئيسي تحرير الصحفيتين، وجمع محرري الصحيفتين، وأمرهم بنشر موضوع جديد ينفون فيه ما تَرَدَّدَ في الموضوع السابق عن المسار الديمقراطي الغربي الذي لن يتجه إليه الشاه؛ لأنه يشجع الخيانة والحكم الاستبدادي!

صدق المثل القائل: "شَرُّ البَلِيَّة ما يُضْحِك"؛ فَحُكم الشاه لم يَعْرِف يومًا للعدالة معنى، واستعاد عرشه بعدما انتفض عليه الشعب في عهد مصدق، وعاد بعد أن وَقَّعَ عقد الخيانة مع الولايات المتحدة، والآن يَصِم الديمقراطية بالاستبداد والخيانة، إنها ذرائع الطغاة ليخرجوا من القصر إلى القبر.

فوجئ الشاه بعد ثلاثة أيام بالحلقة الثالثة من تحقيق صحفي حول إيران كتبه صحفي الجارديان ديفيد هيرست، اتهم فيه المؤسسة العسكرية الإيرانية بالفساد؛ فثارت ثائرة بهلوي الذي هاتف وزير بلاطه والغضب يعصف بكيانه،

وعندما حاول (عَلَم) تهدئته مُخْبِرًا إياه أنَّ الموضوع ليس جيدًا كالموضوعين السابقين، فنهره الشاه قائلًا:

"ماذا تقصد بأنه ليس جيدًا؟ هذا الموضوع يهاجم معتقداتنا، هذا الادعاء يجب أن يُدْحَض من الحكومة البريطانية على أعلى مستوى".

وحتى تكتمل سوداوية المشهد، وجهت المعارضة الإيرانية المسلحة ضربة جديدة للشاه باغتيال الجنرال طهيري محافظ سجن طهران أمام منزله، ومن جديد شعر الشاه بالخطر يتهدد نظامه.

في اليوم التالي التقى الشاه بـ(عَلَم) وسأله عما جاء بجريدة الجارديان، وتساءل مستنكرًا:

"أنا لا أفهم للآن ما الذي يجعله يكتب هذا الجزء الأخير؟ فهو يتضمن أنني كنت صاخبًا مع جماعة المعارضة وأنني أحتاج إلى تحقيق الحرية السياسية والمشاركة".

السادس عشر من أغسطس ١٩٧٢م، التقى (عَلَم) بالسفير البريطاني بعدما أوصل الشاه رسالةً للخارجية البريطانية مفادها أن البلدين لم يعودا صديقين بعد ما نشرته الجارديان، فَهَدَّأَ السفير من ثورة (عَلَم)، وقال له:

"لا يمكن أن يلقى الشاه بصداقته الحميمة لحكومة جلالة الملكة وراء ظهره من أجل كَمٍّ مُهْمَلٍ من الكتابات الصحفية، دولتكم الآن دولة ذات نفوذ يهتم بها، وجلالته رجل عظيم".

بعد نهاية اللقاء مع السفير البريطاني، زار (عَلَم) السفارة الإسرائيلية في طهران للترحيب برئيس الأركان الإسرائيلي؛ للتدليل على عمق العلاقات العسكرية بين الدولة العبرية وعرش الطاووس.

حَقَّقَ الشاه أخيرًا نَجَاحًا أوقف به سلسلة الفشل المتتالي، وذلك في السابع والعشرين من أغسطس ١٩٧٢م، عندما رفض مندوبو السعودية وقطر والأردن بالأمم المتحدة التوقيع على خطاب حاولت بعض الدول العربية تمريره، كَنَصٍّ على أن جزر الإمارات الثلاث عربية، وتقديرًا لموقفهم هذا دعاهم (أَسَد الله عَلَم) ليشكرهم على هذا الموقف.

توترت الأوضاع على الحدود الغربية لإيران بعد اشتداد حدة المعارك بين الحكومة العراقية والأكراد ما اضطر الرئيس العراقي أحمد حسن البكر لزيارة موسكو لعقد صفقات سلاح لسحق المعارضة الكردية الأمر الذي أقلق الشاه، وأمر الشاه (عَلَم) بمناقشة هذه القضية مع السوفييت في زيارته القادمة.

أسدى الشاه خدمةً لسيده الأمريكي ريتشارد نيكسون عندما أرسل له (أَسَد الله عَلَم) رسالة في الثاني من أكتوبر ١٩٧٢م، أبلغه فيها أن السوريين تسلموا دبابات تي ٦٢ من السوفييت، ناقلًا له قلق الشاه من تسلم إيران أسلحة مماثلة تخل بموازين القوة في المنطقة.

حاول عرب الخليج تجميل صورتهم أمام الشاه عبر عرض سعودي من الملك فيصل بن عبد العزيز قدمه بالنيابة عنه هنري كيرن محرر صحيفة فورين ريبورت خلال اجتماع عقده مع (أَسَد الله عَلَم).

اقترح العاهل السعودي موافقة إيران على اتفاقية للدفاع المشترك عن الخليج تشمل جزر الإمارات الثلاث، وبذلك يمتلك الشاه أوراق ضغط في مفاوضاته مع الغرب مستقبلًا.

نقل (عَلَم) العرض للشاه الذي أجاب في كِبْر فارسي معهود: "ما هذا الهُرَاء؟ إن الملك فيصل وكيرن ليس لديهما أدنى علم بما يطلبان، هذه الجزر ملك لنا وتحت السيطرة الإيرانية، ولا يستطيع أي دخيل أن يعبث بها".

كان هذا الرد من الشاه ترجمة عملية لجنون القوة الذي تَمَلَّك الشاه بعد أن أعطاه نيكسون الضوء الأخضر للعب دور شُرْطِيّ الخليج، إضافةً لتدخل نيكسون شخصيًا للحصول من شركات السلاح الأمريكية على حق توريد أحدث الأسلحة للشاه لسد العجز في الميزان التجاري الأمريكي، وبذلك تأكد للشاه أنه يستطيع فرض إرادته على جيرانه الخليجيين دون أن يخشى غضب الغرب.

افتتح الشاه في السادس من أكتوبر ١٩٧٢م الدورة البرلمانية الجديدة، وألقى خطابًا طويلًا أوضح الإنجازات الهامة التي تحققت بعد عقد على الثورة البيضاء المزعومة، لكن أية إنجازات تلك التي يتحدث عنها الشاه؟

هل الثروة الحرام التي أُثْقِلَت بها الحسابات المصرفية للعائلة البهلوية بينما الفقر والمرض والجهل ينهشون في ملايين الإيرانيين؟

أم تهجير النوابغ من أبناء هذا البلد الذين كُتِبَ عليهم العيش في المنافي؛ اتقاءً لبطش الشاه ووحشية رجال السافاك؟

وكعادة مجلس الدواب الإيراني، صَفَّقَ أعضاؤه تصفيقًا حادًا لكذب الشاه المُنَمَّق؛ لينتشي طاغية فارس بإنجازاته الكاذبة ويستمر في غَيِّه.

لكن حياة الشاه الشخصية كانت على النقيض من حياته السياسية؛ فقد سبب له شقيقه حامد العديد من المشاكل والإحراجات؛ لإدمانه على تعاطي المخدرات، إضافةً لحياته الماجنة التي كان يحياها، حتى أصبحت فضائحه مادةً للسخرية من العائلة الكريمة التي تحكم البلاد، وبعدما تَحَوَّل لشوكة في ظهر الشاه؛ قرر الشاه أن يقطع دابر مشاكله.

طرد الشاه حامد خارج البلاد، وألحق ابنه بهزاز بالكلية الحربية عساه يعتمد عليه كساعد أيمن له في الجيش في قادم الأيام، وكان ظن الشاه في محله عندما رأى التغير الذي طرأ على ابن أخيه، وبعدما انتهى من قصة شقيقه وابن شقيقه قرر الانتقال لخطوته التالية.

سافر الشاه إلى موسكو في العاشر من أكتوبر ١٩٧٢م؛ ليبدأ زيارةً ستستمر لعشرة أيام للاتحاد السوفيتي، وكان جدول عمل الزيارة يشتمل على بحث علاقات السوفييت بالعراق والعلاقات (الهندية- الباكستانية)، والعلاقات التجارية بين إيران والاتحاد السوفيتي، وكان ذلك الموضوع في صدارة المباحثات التي سيجريها الشاه مع الرئيس بودجورني.

كان الشاه يريد الحَدَّ من التقارب (العراقي- السوفيتي) الذي رأى فيه تهديدًا لقوة إيران المتنامية، حيث سيعرض الشاه على نظيره السوفيتي بيع كمية أكبر من النفط الإيراني مقابل تقليص علاقات موسكو مع بغداد.

عاد الشاه إلى طهران في الحادي والعشرين من أكتوبر ١٩٧٢م، والتقى بعد ذلك مباشرةً بوزير بلاطه؛ ليطلعه على نتائج زيارته، رأى الشاه أن الزيارة في مُجْمَلِها كانت مثمرةً، واستطاع عَبْرَ خِطَابه الذي ألقاه في كلية الدفاع طمأنة الروس حول الوضع في الخليج، حيث أشار إلى أنَّ مشاكل الخليج لا تُحَلُّ من الخارج، وانتهز السوفييت الفرصة لينتزعوا منه اعترافًا برفض إقامة قواعد عسكرية أمريكية في الخارج، لكن الشاه كان أذكى من مضيفه.

أدار الشاه دفة الحديث لصالحه عندما طلب بالمقابل انسحاب السوفييت من ميناء أم قصر جنوب العراق؛ فَتَهَرَّب بودجورنى من الحديث حول هذه النقطة، وقبيل مغادرته مطار موسكو، طمأنه أليكسى كوسيجين وزير الخارجية الروسي عندما قال له:

"يمكنك أن تطمئن تمامًا بالنسبة لنا، فليس هناك أية مميزات ممكن أن نكسبها من وراء العداء".

عاد الشاه ليقدم خدماته للسيد الأمريكي، عندما وافق في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٧٢م على استخدام نيكسون لطائرات إف ٥ المملوكة لإيران في حربه ضد قوات فيتنام الشمالية، وبعد فترة وجيزة اعتذر الرئيس الأمريكي للشاه، لكنه في الوقت نفسه أبدى امتنانه لموقف الشاه النبيل.

في اليوم التالي، التقى (أَسَد الله عَلَم) بالسفير البريطاني لمناقشة واردات الدبابات من طراز تشيفان، بعد شكوى المؤسسة العسكرية من انخفاض أداء محركاتها، فدافع السفير البريطاني عن مبيعات بلاده من هذه الدبابات بقوله:

"هذه الدبابات مطابقة تمامًا لتلك التي تستخدمها القوات المسلحة ولا توجد أي زيادة لقدرة المحركات."

وفي محاولة لاسترضاء شُرْطِي الخليج المتغطرس، قَدَّم السفير الإماراتي في لندن مهدي الطاجر عرضًا لـ(أَسَد الله عَلَم) باتباع وزير الخارجية الإماراتي أحمد آل سعودي سياسةً أقل عدائية تجاه إيران، وعندما عرض (عَلَم) الأمر على الشاه، رد عليه الأخير بكِبْرِه المعهود:

"أخبره بأن يفعل ذلك، كل هؤلاء يقعون تحت تأثير البريطانيين وهو يقدم عرض أسياده".

كان هذا الرد الجاف من الشاه على العرض الإماراتي خروجًا آخر على النص الذي كُتِبَ له عندما خَلَف أباه، وتجاوزًا لمهامه التي حددها له الغرب، وقرر الغرب أن يحتفظ بهذه السقطات للشاه حتى يعاقبه عليها مجتمعةً عندما يشعر أن مهمة هذا العميل قد انتهت وحان الوقت لاستبداله.

الرابع من نوفمبر ١٩٧٢م، افتتح الشاه خط النفط الجديد بجزيرة (خرج) بطاقة خمسمائة ألف طن، وحضر الافتتاح (أَسَد الله عَلَم)، ورئيس الوزراء أمير عباس هوفيدا، وسفراء فرنسا وبريطانيا وهولندا والولايات المتحدة، وهم أعضاء الاتحاد النفطي المُؤَسَّس عقب انقلاب ١٩٥٣م، وكان الشاه في غاية السعادة لهذه الخطوة التي أظهرت تنامي قوة نظامه النفطية، وأعادت التأكيد للغرب أنه الحارس الأمين لمصالحه النفطية والاستراتيجية في الخليج.

عقب انتهاء الافتتاح، قام الشاه و(عَلَم) بجولة في قاعدة الخرج البحرية، مشاهدًا عرضًا للطائرات المروحية، وبعد تناول العشاء ألقى الشاه كلمةً وضح

فيها التطلعات -وإن شئنا الدقة- الأطماع الفارسية لنظامه في شاطئ الخليج الغربي والمحيط الهندي بطريقته المعهودة في الكِبْر، وإرسال رسائل التهديد لدول الخليج خاصَّةً، وكل من يقف حجر عثرة في وجه تطلعاته عامَّة.

العاشرة من صباح اليوم التالي، شهد الشاه مناورةً لسلاح البحرية عبر اليخت الملكي في جزيرة كيش، وأبدى الشاه ارتياحه للمستوى الذي ظهرت عليه البحرية الإيرانية، وأَحَسَّ أن خطته لاستعادة مجد الفرس القديم تسير وفق ما خُطِّطَ لها.

صباح السادس من نوفمبر ١٩٧٢م، اجتمع الشاه مع (عَلَم) ووزراء الحكومة في خيمة برسوبوليس؛ للانتهاء من خطة التنمية الخمسية الثانية، وقد نالت تقارير الوزراء استحسان الشاه، وشكر وزراءه على خططهم ومجهوداتهم في تنفيذ بنود ثورته البيضاء، وصَدَّق الشاه كذب الإصلاح الذي يحققه في إيران، وكان الشاه على موعد مع خبر سعيد.

السابع من نوفمبر ١٩٧٢م، انتُخِب ريتشارد نيكسون رئيسًا للولايات المتحدة لفترة رئاسية ثانية، وعندما عَلِم الشاه بهذا النبأ؛ ارتفعت معنوياته، خاصَّةً بعدما تأكد له من حديث سابق بين وزير بلاطه والسفير الأمريكي أنه أصبح١١٧

رأس الحربة في الدفاع عن المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، وفي حديث له مع (أَسَد الله عَلَم) أعرب الشاه عن سعادته بالتجديد للرئيس الجمهوري بقوله:

"لقد انتهينا من خطة التنمية الخمسية، وإعادة انتخاب نيكسون تعني أن برنامجنا السياسي لمدة أربع سنوات من الخمس واضح أمامنا".

وطلب الشاه من وزير بلاطه إرسال برقية تهنئة لنيكسون، فأعلمه (عَلَم) أنَّه فعل ذلك، وأنَّ نيكسون سُرَّ بذلك كثيرًا.

التقى (عَلَم) بالسفير الأمريكي في الحادي عشر من نوفمبر ١٩٧٢م، وخلال اللقاء أعرب السفير عن قلق الإدارة الأمريكية من تصرفات رجال الدين التي ربما تقلب الطاولة على رءوس الجميع، فَرَدَّ عليه (عَلَم): "لا تقلق، إنَّ زمانهم قد وَلَّى، فهم عديمو القوة من وجهة نظر جلالته".

وعاود (عَلَم) طمأنة ضيفه بقوله: "هؤلاء البائسون ليس لهم أي تأثير إطلاقًا طالما الشاه في الحكم، والطريقة الممكنة الوحيدة لرجوعهم هو أن يصبح الشاه عديم القوة".

وتَحَدَّث (عَلَم) عن دور رجال الدين في مكافحة الشيوعية حسب اعتقاد الغرب، فقال:

"أنتم والبريطانيون شجعتم رجال الدين كحصن ضد الشيوعية، لكن لو حدث ذلك هل رجال الدين قادرون على استغلال الفرصة ؟".

في اليوم التالي عرض (عَلَم) على الشاه ما دار بين السفير الأمريكي وبينه بالأمس، فَرَدَّ الشاه عليه فيما يتعلق بتأثير المراجع الدينيين في هزيمة الشيوعية قائلًا: "حتى لو افترضنا أن رجال الدين أقوياء، فلن تكون لهم أية فائدة في الحرب ضد الشيوعية، بالطبع.. فهم سيتحولون إلى شيوعيين أو على الأقل اشتراكيين إسلاميين".

وفي دعاية إعلامية لجهود الشاه الإصلاحية، التقى (أَسَد الله عَلَم) في الخامس عشر من نوفمبر ١٩٧٢م، بمندوب عن جريدة الفاينانشيال تايمز البريطانية، الذي أخبره بنية الصحيفة إصدار مُلْحَق خاص عن الخطة الخمسية الجديدة للشاه، ووافق الشاه على طلب الصحيفة، لكنه حَذَّر (عَلَمَ) من حضور الصحفيين الأجانب أية مقابلات معه دون السماح لهم بذلك منه شخصيًا.

الخامس والعشرون من نوفمبر ١٩٧٢م، عرض (عَلَم) على الشاه تقريرًا عن لقاء جمعه بالسفير الأمريكي الليلة الماضية، تَلَقَّى فيه (عَلَمَ) وعدًا من السفير بتلبية نيكسون كل مطالب الشاه بمجرد أدائه قسم تولي الرئاسة، كما طمأنه (عَلَم) بشأن استفسار السفير الأمريكي عن رجال الدين، بعدما نما إلى علمه طلب أحد أئمة المساجد تغيير شعار:

(الله، الملك، الوطن) إلى (الله، الوطن، الملك)، فأجابه (عَلَم) أن ذلك يتوافق مع وجهة نظر الملك، وسخر الشاه من السفير ونعته بالحمار، لكنه سيعامله بلطف حتى لا يغضب نيكسون.

تحققت مخاوف الشاه من تَغَلْغُل الصحافة الغربية في المجتمع الإيراني الذي عزله عن العالم، وذلك بعد أن نشرت جريدة اللوموند الفرنسية مقتل أحد الطلبة المعارضين للشاه ويدعى شامخي على يد الأمن بعد أن عُذِّبَ في مقر الاحتجاز، ثارت ثائرة الشاه عندما قرأ تقرير الجريدة، واتهم القائمين عليها بالكذب، وأن الشاب إرهابي مات بعد ابتلاعه مادة السيانيد السامة!

يا له من تبرير أحمق من حاكم مستبد، يريد غسل يديه من دم القتيل بادعاء غير منطقي بأن الشاب قد انتحر، وهو تبرير يدين نظام بهلوي أكثر مما يبرئ ساحته:

فعلى فرض صحة ما قاله الشاه، لماذا لم تمنع أجهزة الأمن الشاب من الانتحار؟ بل لماذا لم تمنع وصول السم إليه من الأساس؟

وإذا كان الشاب إرهابيًا، فما الأدلة التي ساقها الشاه للتدليل على ارتكابه هذه أعمال إلا إذا كان الاحتجاج على قمع الشاه واستبداده هو الإرهاب في عُرْفِ الشَّاه وعصابته؟

اقترح (أَسَد الله عَلَم) على الشاه نَشْر تَكْذِيب لما وَرَد في (اللوموند)، لَكِنَّ الشاه رفض، وطلب منه عِوْضًا عن ذلك إصدار تعليمات للصحف المحلية بعدم نشر أية موضوعات نقلًا عن اللوموند.

رد عليه (عَلَم) متسائلًا: إلى أيّ مدى؟

فأجابه الشاه: "حتى تدرك اللوموند أنها لا تستطيع أن تؤثر على الآراء هنا".

صَدَق الشاه فيما قاله وهو كذوب، فكأي حاكم مستبد خشي الشاه أن تتسبب اللوموند وغيرها من الصحف الغربية في تأليب الشعب ضده إذا ترك للإيرانيين حرية مطالعة أخبارها، خاصَّةً وهو لم يتعاف بعد من ضربات المعارضة المسلحة ولا خطب الخميني وتسجيلاته التي قام على نشرها شخصان من أتباع الخميني: هاشمي رفسنجاني، وحسن روحاني.

تمتع روحاني ابن الثلاثة وعشرين ربيعًا بهامش حركة أوسع من رفسنجاني؛ لأنه لم يكن معروفًا لدى السافاك، بينما لم يرتدع رفسنجاني من تجربة سجنه الأولى وقرر السير في طريق الكفاح ضد الشاه إلى النهاية.

تأسس حزب الملة الإسلامي كرد فعل من تلاميذ الخميني -وبينهم رفسنجاني بالطبع- على نفي أستاذهم، وحذا رفسنجاني حذو جماعات اليسار في التسلح والقيام بعمليات ضد نظام الشاه، وكان لرفسنجاني تأثيره الخاص على الخميني على الدوام.

كان لاتصالات رفسنجاني الدائمة بأستاذه القاطن بالنجف أكبر الأثر في تغيير وجهة نظر الخميني من أعمال المقاومة المسلحة لنظام الشاه، خاصَّةً من الجماعات اليسارية كمجاهدي خلق والجبهة الوطنية، فقد كان الخميني يرى ألا طائل من ورائها، حتى إنه قال لرفسنجاني وزملائه في إحدى المرات: "لا تقتربوا من هذه الأحزاب، إنهم معقدون، سيستغلون بساطتكم وإخلاصكم ويحملونكم وزر أعمالهم".

ولم يتغير رأى الخميني في هذه الجماعات المسلحة -وبخاصة مجاهدي خلق- بالرغم من عملياتها النوعية، كاختطاف طائرة من دبى والتوجه بها إلى العراق، وانخرط -بالرغم من ذلك- العديد من رجال الدين في هذه الجماعات التي رأوا في أسلوبها وسيلة أنجع لقض مضجع الشاه من العمل السلمي الذي سيخمده النظام البهلوي بقمعه المعهود، لَكِنَّ أجهزة الشاه الأمنية استطاعت كشف عدد من هذه المجموعات عن طريق التغلغل في صفوفها، أو عن طريق شراء ذمم زملائهم، أو بالأدق خيانة بعض رفاق الكفاح لبعضهم.

نشبت كذلك خلافات بين عناصر مجاهدي خلق، وأُلْقِيَ القبض على (وحيد أفراخته) الذي انهار تحت تعذيب السافاك وباح بكل ما في جعبته من أسرار عن الجماعة، وأمسك النظام بزمام المبادرة في مواجهته مع جماعات المعارضة المسلحة بعد ضربة أفراخته الموجعة، وقَلَّت عمليات المعارضة المسلحة إلى حد العدم، وقرر الشاه توجيه ضرباته الموجعة تِبَاعًا للخميني وأنصاره.

قَصَم الشاه ظهر المعارضة باعتقال رفسنجاني عام ١٩٧١م عندما وقعت إحدى رسائله الموجهة للخميني في أيدى السافاك، ونُقِلَ رفسنجاني لسجن إفين، حيث تعرض للجلد والتعذيب قبل أن يتعرض لمحاولة تسميم فاشلة من عناصر السافاك، وزاد من متاعب رفسنجاني النفسية منع الزيارة عنه خلال المدة التي قضاها في ذلك السجن.

نُقِلَ رفسنجاني بعدها لسجن (قزل قلعة) مع رفيقيه اللذين اعتقلا معه محمد توسلي والسيد سحابي، وهناك سُمِحَ لرفسنجاني بأن يزوره أفراد عائلته؛ ما وجد فيه سلوى لمتاعبه التي قاساها على أيدى زبانية بهلوي، وسرعان ما نقل رفسنجاني إلى سجن عشرت آباد.

كان المسجونون المنقولون إلى هذا السجن ينتظرون العرض على المحكمة، خاصَّةً مع قربه من المحكمة العسكرية التي يُعْرَض عليها المتهمون، وبعد فترة من مكوثه في السجن عُرِضَ رفسنجاني على المحكمة التي قضت بحبسه سبعة أشهر.

قضى رفسنجاني مدة العقوبة في سجن عشرت آباد يدرس تفسير القرآن ويعطي محاضرات دينية، وبعد خروجه علم رفسنجاني بقرار منعه من اعتلاء المنابر؛

فقرر الاستمرار في تدريس تفسير القرآن وإعطاء المحاضرات، لَكِنَّ الأمن عاد لاعتقاله مجددًا.

أثناء دخوله أحد المتاجر لشراء الحلوى بمدينة كرمان أوقف رفسنجاني سيارته على جانب الطريق، فتَذَرَّع أحد رجال المرور بمخالفة ذلك للقانون، واصطحبه إلى مركز الشرطة حيث نُقِل بعد ذلك إلى طهران.

اقتيد رفسنجاني مُجَدَّدًا لسجن (قزل قلعة)، ووُضِعَ في الحبس الانفرادي، ولم يُسْتَخدَم معه العنف في التحقيق أو التعذيب في محبسه كما حدث في السابق، بل وقدموا له الكتب التي اعتاد على قراءتها، اندهش رفسنجاني لهذه المعاملة المغايرة، لَكِن إذا عُرِفَ السبب بَطُلَ العجب.

كان السبب وراء اعتقال رفسنجاني هو مشاركة زوجته في اعتصام نفذته عائلات المجاهدين ضد نظام الشاه في منزل آية الله شريعتمداري بمدينة قُم المقدسة، واحتُجِزَت لفترة قبل إطلاق سراحها، واعتقدت أجهزة أمن الشاه أن رفسنجاني هو منظم الاعتصام، وهو ما أنكره رفسنجاني عند عرضه على المحققين، لَكِنَّ سلطات الشاه لم تقتنع بما قاله تلميذ الخميني.

نُقِلَ رفسنجاني إلى أحد مراكز السافاك التي أُنْشِئَت حديثًا، حيث دار بينه وبين المقدم الذي تَوَلَّى التحقيق معه حوار حول جدوى تعذيب المعتقلين، وكان الحوار مُثْمِرًا مع هذا المُقَدِّم المُتَفَتِّح العقل الذي رفض اتِّبَاع هذا الأسلوب الوحشي العقيم، والذي رأى أنه سيضر أول ما يضر بنظام الشاه، ويجعل القائمين عليه كعصف مأكول.

ومن ثَمَّ أُخْلِيَ سبيل رفسنجاني دون ضمانات، وكان هذا التصرف ذا أثر كبير على مسيرة النِّضَال ضد نظام الشاه، فَكَم من الإيرانيين أحجم عن معارضة نظام الشاه خَوفًا من التعذيب والسجن في مسالخ السافاك ومعتقلاته، وبدأ رفسنجاني في المرحلة التالية من خطة العمل لإسقاط نظام الشاه.

قامت المرحلة الثانية من خطة رفسنجاني على محورين:

١- المحور الاقتصادي:

الذي رَكَّز على شراء الأراضي لإقامة المباني عليها، ومن ثَمَّ بيعها والإنفاق منها على مساعدة الأسر المعوزة.

٢- المحور السياسي- الدعوي،مثل:

تأسيس مدرسة الرفاه، منتدى التوحيد، مؤسسة الرفاه وذلك لتحقيق ثلاثة أهداف:

١- المساعدة في أنشطة حسينية الإرشاد.

٢- ستار لإقامة العلاقات بين مناوئي نظام الشاه.

٣- تسهيل عقد الاجتماعات بين مناوئي الشاه؛ للتنسيق فيما بينهم فيما يخص العمليات المسلحة.

وفي وقت لاحق، قرر رفسنجاني السير على نهج حركات المقاومة اليسارية التي أنشأت مكاتب تمثيل لها في الخارج في القارة الأوروبية العجوز على وجه الدقة، حيث عرض الأمر على الخميني الذي وافق على إنشاء مكتب لتمثيل حزب الملة بالخارج، حيث رأى أن عرض قضية الشعب في الخارج سيشكل عونًا هائلًا للثائرين في الداخل، ولم يُضِع رفسنجاني وقتًا وسافر لأوروبا وأسس عددًا من

مكاتب الحزب هناك، ووجد في هذه الرحلة فرصة للوقوف على أساليب الحكم التعددي في الغرب إذا ما أراد إصلاح إيران مستقبلًا.

أما نظام الشاه، فقد عاد مجددًا للحصول على أحدث إنتاج مصانع السلاح الأمريكي، فقد تعاقد على مائتين واثنتين طائرةً سمتيةً من طراز بيل تَقَرَّر الحصول عليها عام ١٩٧٤م، كما توسعت شركة بيل في تقديم الخدمات لطائرات الهليوكوبتر، حيث دربت ألفًا وخمسمائة طيار، وخمسمائة فنى صيانة، بعَقْدٍ وصلت قيمته إلى مائتين وخمسة وخمسين مليون دولار.

وفي نفس العام عقد محمد رضا بهلوي مع إدارة نيكسون صفقة طائرات بوينج ٧٠٧ بقيمة مائة وثمانية وأربعين مليونًا وخمسمائة ألف دولار؛ لتدعيم القوات الجوية، هذا بالإضافة إلى صفقة قاذفات مقاتلة بقيمة ملياري دولار من الولايات المتحدة لنفس الغرض السابق.

بموازاة ذلك، امتلك نظام الشاه مصانع عدة لصناعة السيارات بطريقة التجميع للأغراض العسكرية في المقام الأول وبدرجة أقل للأغراض المدنية، وحصلت العديد من الشركات الأجنبية على توكيلات لإنتاج عجلات النقل العسكري والمحركات، مثل:

شركة جيب الأمريكية، شركة ليلاند الأمريكية، شركة دميلز بنز الألمانية الغربية. واستطاع الشاه كذلك الاستفادة من علاقته القديمة بكيرميت روزفلت للحصول على مزيد من الدعم لسلاح الجو، فدعا روزفلت وزوجته لقضاء أجازة في طهران وطرح عليه الشاه طلبه الحصول على جهاز إليكتروني يستخدم

في سلاح الطيران ولدى السافاك على حد سواء، وكان روزفلت عند حسن ظن وريث عرش الطاووس ولبى له طلبه.

ورغم ذلك لم يتوقف الشاه عن طلب المزيد من الأسلحة الأمريكية، حتى إن منوشهر توفانيان مسئول مشتريات السلاح الأمريكية وصف تعطش الشاه للحصول على القوة بأية وسيلة بأن الشاه يسعى للحصول على تكنولوجيا الغد وليس اليوم.

خلال ذلك العام أيضًا بدأ الشاه يفكر جَدِّيًا بل ويتخذ خطوات عملية للحصول على التقنية النووية -العسكرية بالطبع- خاصةً بعد أن عَلِم بنية جارته الشرقية باكستان في الحصول على هذا السلاح الرادع؛ موازنةً لقوة الهند التي أعلنت مِرَارًا نيتها الحصول على هذا السلاح، وقد لَقِي الطلب الباكستاني رفضًا قاطعًا من الولايات المتحدة بالرغم من علاقة التحالف التي تجمع البلدين.

رأى الشاه في إيران الأجدر بين البلدان الثلاثة بالحصول على هذا السلاح؛ لما تقدمه للغرب والأمريكيين على وجه الخصوص من خدمات، خاصَّةً مع سخاء إدارة نيكسون في منحه ما يريد من أسلحة، وقرر بهلوي اتخاذ الخطوة الأولى في مشوار الألف ميل النووي.

التاسع عشر من يناير ١٩٧٢م، وَقَّعَ بهلوي اتفاقيةً مع فرنسا للحصول على مفاعل نووي -زعم أنه للأغراض السلمية- مغردًا بذلك خارج السرب الأمريكي للمرة الثانية بعد صفقات السلاح السوفيتي عامي ١٩٦٦م و١٩٦٧م، الأمر الذي

أقلق إدارة نيكسون لمعرفتها بأطماع الشاه التوسعية، لَكِنَّه ادَّعى أنه لن يُطَوِّرَ أسلحةً نوويةً، لَكِنَّ أفعال الشاه خالفت أقواله كالعادة.

اشترى الشاه أنظمةً نوويةً متطورةً، وحصل على مفاعلات نووية متطورة من ألمانيا بل والاتحاد السوفيتي، الذي صَدَّع رءوس الأمريكيين بعداوته له ومن أمريكا، وتَسَبَّبَ هذا النَّهَم الهلوي في إثارة شكوك الدول الكبرى، على الرغم من منحها له مفاعلات يقتصر إنتاجها على الطاقة النووية السلمية؛ لمعرفتها أن إنتاج السلاح النووي لا يحتاج أكثر من قرار سياسي لتحويل السلمي إلى عسكري، ومن ناحية أخرى حضور الصراع (الهندي- الباكستاني) في أذهان حكومات الغرب التي كانت تعرف موقف الشاه منه.

لكن الشاه ما فتئ يرسل رسائل طمأنة مجددًا لأسياده في الغرب بشأن عزوفه عن امتلاك سلاح نووي، فعندما سأله أحد الصحفيين في هذا الصدد أجاب: "في الوقت الحالي أنا لا أمتلك أسلحة نووية؛ فهي مكلفة للغاية وليس لدينا الصواريخ أو الطائرات التي تحملها، لكن هناك شيء واحد أحب أن أؤكده: إيران لن تكون آخر بلد في المنطقة النووية".

كان الجزء الأخير من إجابة الشاه هو ما أثار مخاوف الغرب مُجَدَّدًا، لكن زعماءه تقبلوا ما أعلنه الشاه حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود في هذا الشأن الذي أَقَضَّ مضاجعهم.

وفي محاولة خادعة لتطمين العرب بشأن هذا المخزون الهائل من الأسلحة التي حصل عليها قال الشاه: "تسألونني ضد من سأوجه هذه الأسلحة؟ أتظنون أنها

موجهة ضد العرب؟ أعتقد أن موقفي من البحرين كافٍ ليقضي على هذه الفكرة.

فعلى الرغم من أننا نعتبر البحرين إيرانية، إلا أننا لا نرغب في ضم أراض تكون القوة فقط هي السبيل للاحتفاظ بها، ويتهم البعض إيران بأن لها مخططاتٍ توسعيةً في الإمارات، لكن ماذا يمكن للإمارات أن تقدم لنا؟

هل نحن نريد نفطهم؟ وماهي المبالغ التي يتحصلون عليها؟

مليارات، ثلاثة مليارات، أربعة مليارات هذا مبلغ تافه بالنسبة لنا.

لقد حصلنا على هذه الأسلحة لأننا نريد أن نكون أقوياء جدًا في المنطقة التي نعيش فيها، هل يجب أن نظل ضعفاء لأن هذا سيدخل السعادة على العرب؟

لا يمكن لأي بلد أن يُكَيِّفَ سياسته الدفاعية بما يتفق مع مخاوف الآخرين".

وفيما يخص التعاون مع إسرائيل، أعلن الشاه في أحد لقاءاته الصحفية أن تعاونه مع الدولة العبرية تخطى التعاون بين الموساد والسافاك، بعد أن أرسل بهلوي مجموعات من كل أسلحة الجيش وفروع الإدارة المدنية للتدريب في إسرائيل؛ ليوجد بذلك حليفًا قويًا يستند إليه إذا ما شعر بالخطر يكتنف نظامه.

تَحَقَّقَ للشاه ما أراده من قوة عسكرية غاشمة، لَكِنَّه أيضًا ألحق أضرارًا جسيمةً بمعايش الإيرانيين؛ فارتفعت أسعار السلع الأساسية، وزادت معدلات البطالة، وتأثرت الطبقتان الوسطى والفقيرة بهذه الكارثة الاقتصادية؛ فازداد الفقراء فقرًا على فقرهم، وانضم مئات الآلاف من أبناء الطبقة الوسطى إلى

طوابير الفقراء، وتَدَهْوَرَ الإنتاج الزراعي بسبب هجرة عشرات الآلاف من الفلاحين من القرى إلى العاصمة تاركين أراضيهم الزراعية فريسةً للجدب.

حدث ذلك بينما كان الأغنياء المقربون من الشاه يتقلبون في النعيم في شمران شمال طهران، يلعبون القمار ويعاقرون الخمر ويتعاطون الأفيون، ويسافرون للتسوق في باريس، وجنوب العاصمة يحيا على النقيض من ذلك، وقرر مستشارو الشاه والمقربون منه أن يسدوا إليه النصح قبل أن يستيقظ على كارثة.

حَذَّرَ الخبراء الاقتصاديون الإيرانيون والأجانب الشاه من عواقب سياساته الوخيمة التي ستؤدي لو تفاقمت إلى انهيار نظامه، لَكِنَّ الشاه بتعاليه المعهود رفض سماع النصيحة فضلًا عن العمل بها، وَرَدَّ على ما سمعه قائلًا: "يتوجب على رجل الدولة ألا يستجيب أبدًا لنصائح رجل الاقتصاد".

ما أشبه الليلة بالبارحة!

هذا الرد قيل بصيغة أخرى قبل تسعة وعشرين عامًا، وعلى لسان الشاه أيضًا عندما نبهه آرثر ميلزبو مستشاره الأمريكي أن الإنفاق العسكري لن يترك إلا القليل للإنفاق على الزراعة والتعليم والصحة، فَرَدَّ عليه الشاه بلامبالاته المعهودة: "حسنًا، سوف نؤجل تلك الأشياء".

بنى الشاه بتجاهله لتوفير متطلبات الحياة الأساسية جدارًا آخر من العزلة بينه وبين شعبه، وبقيت قرى إيرانية بل وأحياء في طهران تعيش بعيدة عن المدنية، حيث لا ماء ولا كهرباء ولا صرف صحي ولا وظيفة حكومية، ناهيك عن الكرامة الإنسانية المُهْدَرَة على أيدي السافاك وقضاة المحاكم العسكرية

أصحاب التهم المُعَلَّبَة والأحكام المُفَصَّلَة بما يرضي غرور الشاه، وأشعل الشاه جذوةً أخرى للثورة ضده بتجاهل هذه النصيحة.

ففي ذلك العام استنزفت التجهيزات العسكرية مبالغ مهولةً من الميزانية العامة للدولة؛ نتيجة الإنفاق على المواد اللازمة لإتمام هذه المشروعات العسكرية، واستعانة قطاع الدفاع بعدد كبير من الخبراء لمساعدة الحكومة في هذه التجهيزات، وأُجِّلَت -كما العادة- مشاريعُ التعليم والصحة والزراعة إلى أجل غير مسمى، وتعبيرًا عن شعوره بالرضا لما وصل إليه جيشه قال الشاه: "إنَّ الجيش الإيراني سيصبح من القوة إلى الحد الذي لن يصبح موضع اهتمام دول المنطقة فَحَسْب، وإنما سيضطر العالم كله لإدخال قوة الجيش الإيراني في حسابه؛ لأن إيران لن تُسَلِّح جيشها بالقنبلة الذرية، ولَكِنَّها ستبني جيشًا لا يُقْهَر إلا بالقنبلة الذرية".

كان طموح الشاه للهيمنة على الخليج يصطدم بالمخاوف العربية من سياساته التوسعية في شاطئ الخليج الغربي من ناحية، ومن ناحية أخرى علاقاته الاستراتيجية بإسرائيل؛ فَقَرَّر الشاه أن يلقى حجرًا في ماء المخاوف الراكدة؛ عَلَّه يحصل على موافقة العرب على تَزَعُّمِه للخليج.

عَرَضَ الشاه على زعماء الدول العربية الخليجية إنشاء جهاز لأمن الخليج أواخر ذلك العام، لَكِنَّ العرب تجاهلوا دعوته؛ لتيقنهم أن هذا الجهاز المزعوم لن يكون إلا ستارًا لإمساك الشاه بمقدرات الأمور في الخليج، لكن الشاه لم ييأس.

لعب الشاه على ورقة الصراع العربي الإسرائيلي؛ لعل وعسى يتقبله العرب كشرطي للخليج كما قبل به العم سام، فَعَمِل بنصيحة الشيخ طارقي الخبير

النفطي العربي المرموق، الذي دعاه للوقوف في صف العرب خلال صراعهم مع إسرائيل؛ ليبدأ التأسيس لعلاقات حُسْن جوار بينه وبينهم، فكانت أولى حلقات مسلسل التقارب مع قلب العرب: مصر.

تَحَسَّنَت العلاقات كثيرًا بين مصر وإيران في عهد السادات، وعاد التمثيل الدبلوماسي بين البلدين بعد أن تَقَلَّص لدرجة مكتب تمثيل مصالح بين البلدين أواخر عهد عبد الناصر، وكان للشاه الفضل في كَشْف مؤامرة مراكز القوى للسادات في بداية حكم الأخير لمصر بل عام ١٩٧١، وفي ذلك العام أبلغ الشاه منوشهر إقبال رئيس الشركة الوطنية للنفط بإيقاف مشروع خط الأنابيب الرابط بين مينائي أشدود وإيلات على البحرين المتوسط والأحمر، ووصلت الثِّقَة بينه وبين السادات لدرجة البوح له بإصابته بالسرطان، لَكِنَّ دول الخليج على الرغم من ذلك ظَلَّت تتوجس خِيْفَةً من نوايا الشاه.

أَجَّلَ الشَّاه خُطَطَه للسيطرة على الخليج؛ حَتَى يَفْرُغ من خُطْوَتِه التالية لإنهاك نظام بغداد المتحالف مع السوفييت والحد من خطورته على نظامه وعلى مصالح الغرب، لَكِنَّه تَلَقَّى شكوى كَدَّرَته وأثارت غضبه.

أبلغ د/ حسين نصر رئيس معهد أريانز التكنولوجي (أَسَد الله عَلَم) بأن كثيرًا من طلاب المعهد متعصبون دينيًا ولا يدرى كيف يتصرف معهم، رفع (عَلَم) الأمر للشاه الذي غَضِب وضاق صدره، وقال لعلم: "هم مجرد شيوعيون يتنكرون في رداء التعصب الديني ويتحركون من خلال رجال أذكياء جدًا، نفس الجماعة التي بدأت الماركسية الإسلامية".

ثم ختم كلامه لـ(عَلَم) بقوله: "أنذر نصر بأن يتحرك بحرص ويَتَحَرَّى الأمر جيدًا".

وقد قصد الشاه بعبارته الأخيرة أن يضع هؤلاء الطلبة تحت مجهر مراقبة السافاك حتى تحين لحظة التخلص منهم.

تَحَسَّنَت العلاقة المتوترة بين الشاه وبريطانيا أخيرًا، وذلك بعد أن أذاعت محطة البي بي سي ومجلة الإيكونوميست في الرابع من ديسمبر ١٩٧٢م تقريرًا عن حصاد الخُطَّة الخمسية الثانية للثورة البيضاء، بل واقترحت البي بي سي على شركات النفط التنقيب عن النفط في بلد وصفته بالقوى والمستقر مثل إيران، وقد أثنى بهلوي على هذا العمل واصفًا البريطانيين بمن تَعَقَّلوا أخيرًا.

في نفس اليوم تلقى الشاه إشارةً تطمينيةً جديدةً أكدت له أهميته الاستراتيجية لدى إدارة نيكسون، وذلك عندما بعث أردشير زاهدي سفير الشاه لدى واشنطن ببرقية للشاه تفيد بأن السفير الأمريكي لدى طهران مقرب من نيكسون، وهو ما يضمن مُضِي خُطَّة التَّسَلُّح قُدُمًا.

أراد الشاه جَنْي المزيد من المكاسب، فَلَعِبَ مُجَدَّدًا بورقة النفط ليجني مزيدًا من الأرباح؛ فَعَقَد اجتماعًا مع ممثلي شركات النفط الأجنبية بإيران في الرابع عشر من ديسمبر ١٩٧٢م استمر لثلاث ساعات، وأعلن لهم بهلوي نيته إلغاء جميع الاتفاقيات والامتيازات السابقة، بحيث تنتج إيران النفط وتشتريه الشركات الأجنبية.

اجتمع الشاه في اليوم التالي بوزير بلاطه (أَسَد الله عَلَم) لساعتين ونصف، وقد نبهه (عَلَم) إلى أن خطوة كهذه لن تمر مرور الكرام لدى الغرب، فَرَدَّ عليه الشاه

قائلًا: "لا يوجد بديل آخر لَدَيَّ، يجب أن نُؤَمِّن استفادتنا كلما سمحت الفرصة بذلك".

صدقت توقعات (عَلَم) بشأن النفط، فقد أبدت الولايات المتحدة وبريطانيا تذمرهما مما فعله الشاه؛ فَكَلَّف الشاه وزير بلاطه بدعوة الملحق الثقافي الأمريكي والسفير البريطاني إلى منزله؛ ليطلعهما على وجهة نظر الشاه.

قدم (عَلَم) دعاية جديدة لثورة الشاه البيضاء في حديث صحفي أدلى به لصحيفة (كيهان)، وقد لاقى هذا الأمر استحسان الشاه ووصف حديث (عَلَم) الصحفي بالرائع، ولم لا وهو يجمل وجه سيده القبيح مُدِيرًا ظهره لمعاناة الشعب.

وفي لفتة ذكية من بهلوي، طلب من (عَلَم) إرسال برقية تهنئة لسيده وصديقه الأمريكي ريتشارد نيكسون بمناسبة عيد ميلاده التاسع والخمسين، وكان ذلك في الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٧٢م، وفي اليوم التالي سُرَّ الشاه بما وصله من أخبار.

فقد نشرت البي بي سي تقريرًا أشادت فيه بمعدلات النمو الاقتصادي التي وصلت لعشرة في المائة ذلك العام، إضافةً لإشارتها للقوة العسكرية التي أضحت إيران تملكها، لكن الشاه لم يلبث أنْ عَبَسَ وتَوَلَّى.

صارح (عَلَم) مولاه بأوجه القصور في نظامه، مثل: قلة كفاءة الأجهزة الحكومية، وسُخْط الشعب لتجاهل دوره في العملية السياسية، مُنَبِّهًا الشاه لضرورة إيجاد حل، لَكِنَّ الشاه غَضِب، واستحالت سعادته عبوسًا؛ فقد اعتبر نصيحة (عَلَم) المخلصة طَعْنًا في نظامه، وليته عمل بها!

السابع والعشرون من ديسمبر ١٩٧٢م، فوجئ (أَسَد الله عَلَم) بمهدي سامي محافظ البنك المركزي يدخل عليه طالبًا المشورة فيما طلبه منه الشاه، وعندما استفسر (عَلَم) عما طلبه الشاه، رد عليه سامي: "يريدني أن أنشئ حزبًا معارضًا".

فَرَدَّ عليه (عَلَم) بوجوب طاعة الأمر، لَكِنَّه نَبَّهَهُ في الوقت عَيْنِه إلى البقاء صامتًا، وعدم إبداء المعارضة لسياسات الشاه؛ حتى لا يغضب الأخير، وهذا هو نهج المعارضة في البلدان الشمولية:

تُعارض بما يمليه عليها رأس النظام لا بما يستحق المعارضة فعلًا، إضافةً إلى اكتفاء المعارضة بالتمثيل البرلماني المحدود لا السعي إلى الوصول للحكم.

اعتقد الشاه بما فعله أنه ينفث الغضب الجماهيري على سياساته، لكنه -ودون أن يدرى كعادته- غَذَّى نيران ثورة الشعب ضده بمزيد من سكب بنزين الاستبداد على نار السخط من نظامه.

طوى عام ١٩٧٢م آخر صفحاته وقد بلغت نفقات التسلح مليارين وستةً وتسعين مليون دولار في مقابل ميزانية هزيلة للغاية لم تتجاوز عشرات الملايين من الدولارات في التعليم والصحة والزراعة، لكن جدير بالإيرانيين أن يشكروا الشاه أنه تَكَرَّم عليهم بهذه الميزانية الهزيلة ولم ينفقها على التسليح هي الأخرى!

أرسل سفير إيران في لندن (أفشار) برقيةً للشاه في الثاني عشر من يناير ١٩٧٣م بخصوص عرض جديد تقدم به البريطانيون بخصوص حصة إيران في اتحاد البترول، حيث عرضوا على الشاه شروطًا أفضل، لَكِنَّ الشاه رفض العرض، واتخذ خطوةً تصعيدية.

صباح اليوم التالي، أوعز الشاه لوزير بلاطه باستدعاء السفير البريطاني والاستفسار منه عما أسماه الخِدَاع، في إشارة للعرض المقدم بالأمس، وأمره كذلك بإخبار السفير الأمريكي هاتفيًا بألا تَرَاجُع عن أسلوب (الشراء- البيع) فيما يخص إنتاج النفط.

الرابع عشر من يناير ١٩٧٣م، رفض الشاه عَرْضًا من ممثلي اتحاد البترول بحصول إيران على واحد وخمسين في المائة من حصة النِّفْط لَكِنَّ الشاه تَشَبَّث بموقفه.

قررت الولايات المتحدة صاحبة الحصة الكبرى في هذا الاتحاد بالمشاركة مع بريطانيا الدخول بِثِقَلِها على خَطِّ المفاوضات مع الشاه، والتقى وزير البلاط بمستشار وزارة الخارجية الأمريكية الذي حَمَل له رسالة من نيكسون إلى الشاه، والتي جاء فيها:

"جلالة الامبراطور.. كما تعرف جلالتك فقد تتبعت باهتمام بالغ المفاوضات الجارية بين حكومة جلالتكم واتحاد البترول، التقارير المؤخرة الخاصة بالوضع الراهن لهذه المفاوضات كان لها أثر بالغ بالنسبة لي، أنا أكتب لكم الآن من منطلق صداقتنا الطويلة واهتمامنا المشترك للاستقرار في هذه المنطقة من العالم.

أخاف من أنَّ العروض الأخيرة المُقَدَّمَة من حكومة جلالتكم قد تؤثر بشدة على المنطقة بأكملها وعلى وضع علاقتنا المشتركة، كما تعلم أنني في الوضع الراهن مهتم اهتمامًا بالغًا بالأنشطة المرتبطة بهذه المفاوضات؛ للوصول إلى سَلامٍ في منطقة جنوب شرق آسيا، وإعادة تنظيم الجهاز الإداري الخاص بي يوم تَوَلّي السلطة، وهذا لا يجعلني أستطيع أن أعرض الموقف الحالي.

فأي خطوة انفرادية أو من جانب واحد لا تُقَابِل الفائدة الشرعية للجانبين قد تكون لها آثار ضارة بالنسبة للأهداف التي نسعى لها سويًا، أنا أتمنى أن تؤجل أي عمل فرديّ؛ حتى أتمكن من دراسة الموقف ووضع وجهات نظر بالنسبة له".

حملت الرسالة تهديدًا مُبطنًا بالرغم من الكَيَاسة الظاهرية، وقد استاء الشاه من محتواها وتساءل: "كيف تُوصَف علاقتنا بالخاصة، ثم يهددنا نيكسون وتهتز العلاقات بين البلدين لشأن كهذا؟".

ثم استطرد الشاه: "لن نقبل النصيحة من عدو أو صديق".

بعد شهرين من هذه الرسالة (أواخر مارس ١٩٧٣م)، حدث تطور خطير في قضية ووترجيت (المبنى الديمقراطي الذي عُثِرَ بداخله على أجهزة تنصت قبيل انتخابات الرئاسة العام الماضي) إذ تَتَبَّع مكتب التحقيقات الاتحادي الحسابات المصرفية للمتهمين فوجدها تتبع الحملة الانتخابية لنيكسون، بما يعنى تورط مؤسسة الرئاسة في هذه الفضيحة، الأمر الذي أقلق الشاه من تطور الموقف إلى عَزْل سيده، وتَغَيُّر تعامل الرئيس القادم معه.

اندلعت مظاهرات مفاجئة في جامعة طهران مناوئة للحكومة تَدَخَّل الأمن كعادته لقمعها، ووصل الأمر لفصل السلطات الإيرانية أستاذًا بريطانيًا بجامعة طهران، وهاتف السفير البريطاني (عَلَم) مُحْتَجًّا على ما حدث، لَكِنَّ (عَلَم) عَنَّفَه، وقال له: "لولا توجيهات الشاه لتعامل معه على نحو آخر". وقد استحسن الشاه رد (عَلَم) في سقطة جديدة للشاه سيدفع ثمنها غاليًا من حكمه.

وقعت أزمة جديدة للشاه فيما يخص ميزانية الحكومة، والسبب أيضًا الإنفاق العسكري الذي وصل إلى ثلاثمائة في المائة من الموازنة العامة، فقد فوجئ (أَسَد الله عَلَم) خلال اجتماعه برئيس جامعة بهلوي وبرئيس هيئة التخطيط عبد المجيد مجيدي بعجز في الموازنة المخصصة للأبنية الجامعية وصل إلى ستة عشر مليون دولار، وكتم (عَلَم) هذا الأمر عن الشاه خِشْيَةَ إغضابه، لَكِنَّه أغضب بذلك شعب إيران الذي سلبه طغيان الشاه الحق في تعليم مرموق يرفعه لمراتب الأمم المتحضرة.

على الرغم من سير مفاوضاته مع اتحاد البترول في صالحه، إلا أن بهلوي انفجر غضبًا لرفع تسعيرة بنجر السكر للمزارعين دون خَفْض الضرائب المُقَرَّرَة كما أمر الحكومة، وخشي بهلوي من انتفاضة يقودها المزارعون هذه المرة تزلزل عرشه إذا ما شعروا أن الحكومة تمنحهم باليمين ما تأخذه منهم باليسار.

أيام معدودة، وتَلَقَّى الشاه صدمةً كان لها وقع الصاعقة عليه، وممن؟

من جيشه الذي صنعه على عينه وأنفق عليه حتى بات هذا الإنفاق تهديدًا وجوديًا لملكه.

خلال مشاهدة الشاه مناورةً بَحْرِيَّةً في جزيرة أبو موسى جرت في السادس من مايو ١٩٧٣م، لم تصب طلقات المدفعية والصواريخ أهدافها، حاول (أَسَد الله عَلَم) تهدئته وأخبره أن الأسطول البحري بشكله الحالي يحتاج إلى وقت ليتحسن أداؤه، وأن قنابل سي كيلر التي استخدمت في التدريب ليست هي القنابل التي ستستخدم في الحرب، لَكِنَّ الشاه تجاهل كل ما قاله (عَلَم) ورَدَّ في حدة

وغضب: "هل هؤلاء الذين اعتمد عليهم في تخطيط سياستي الخارجية في مواجهة القوى الخارجية؟ إنهم حشد من المعتوهين".

خَلَفَت هذه الحادثة قلقًا عميقًا لدى الشاه، فهذا الجيش هو الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها حكمه الاستبدادي، وبناءً على ما جرى أصبح لزامًا عليه إعادة النظر في استراتيجيته العسكرية، والعمل على وضع خطط إنمائية تمنحه بعض الشعبية لدى شعبه الناقم على حكمه.

بدأ الشاه في تنفيذ هذه الخطوة في الثالث والعشرين من مايو ١٩٧٣م خلال اجتماع عقده مع وزير بلاطه في مدينة (مَشْهَد) المُقَدَّسَة، واتفق خلاله الشاه على:

١- مد السكك الحديدية حتى شاطئ الخليج.

٢- بناء محطة للطاقة النووية تستوعب فائض الغاز الطبيعي الإيراني.

لكنه -ولأن الطبع يغلب التطبع- فإن الشاه استمر في عقد صفقات التسلح مع الولايات المتحدة، وتَسَلَّم خلال ذلك العام صفقة مدمرات سبراونس مضادة للعمليات الجوية بقيمة ثمانية وثلاثين مليون دولار، إضافةً لشراء نظام المراقبة الإلكتروني المتطور بثمانمائة وخمسين مليون دولار، والذي استفاد منه الشاه في مراقبة جيرانه والتنصت عليهم، وتحديدًا دول الخليج، وحصل الشاه كذلك على مدمرتين Allen summer تم تحديثهما، إضافةً إلى ست طائرات استطلاع طراز بي ٣٥ بثمانية وتسعين مليون دولار، وست طائرات سمتية مضادة للغواصات، وأربع طائرات نقل وارتباط، وثلاث غواصات.

لم يكتف الشاه بما حصل عليه من الولايات المتحدة، فعقد صفقةً لشراء اثنتي عشرة غواصةً مسلحةً بصواريخ هاربور وستاوندر من ألمانيا الغربية وهولندا، وفي نفس العام أيضًا أنشأ الشاه مُجَمَّعًا لتجميع وصيانة الصواريخ في شيراز، ومُجَمَّعًا آخر لصناعة الأسلحة والمعدات العسكرية لإنتاج البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية بالاشتراك مع شركة أوميبول البلجيكية.

وأقام بهلوي كذلك منشأةً سريةً بمنطقة باجن جنوب شرق العاصمة طهران لإنتاج وتجربة رءوس حربية متطورة ومحركات صواريخ، وعمل بها ثمانون متخصصًا في الكيمياء والمتفجرات وهندسة الصواريخ من ألمانيا الغربية.

عاود الشاه مَدَّ جسور التعاون مع جاره اللدود الاتحاد السوفيتي، فَعَقَدَ صفقة تَسَلَّح مع حكومة بودجورنى بقيمة مائة وعشرة ملايين دولار شَمِلَت شاحنات وناقلات جنود مُصَفَّحَة وصل عددها إلى مائة ناقلة من طراز بي تي آر ١٥٢ ومدافع مقاومة للطائرات.

ونالت البحرية الإيرانية نصيبها من صفقات الشاه، فأنشأ قوةً بحريةً تستطيع دعم تنفيذ عمليات بحرية بالحوامات والطائرات العمودية، وزَوَّدَ البحرية بكاسحات ألغام ومُعِدَّات مضادة للغواصات؛ لتتهيأ لعمليات خارج حدود إيران، وعما قليل أثبت الجيش لقائده الأعلى أنه درعه الواقي ضد العصاة.

انتفضت قبائل جنوب إيران ضد حكم الشاه في ذلك العام، فنزل الجيش بقضه وقضيضه ليسوي تلك المناطق بالأرض ويُعِيد الأمور لسابق عَهْدِها، لكن هل سيظل القمع سيد الموقف كلما صَدَحَت الحناجر بالحرية؟

وفي حلقة جديدة من مسلسل الديمقراطية الزَائِفَة، وافق رئيس الوزراء عباس هوفيدا على تعيين ناصر أميري رئيسًا لحزب ماردوم المعارض!

وهذا هو قمة الهَزْل أن يكون رئيس حزب معارض مُعَيَّنًا من النظام الذي يعارضه، لكنها الديمقراطية البهلوية الحائزة على رضا الغرب طالما ظل الشاه كلبًا وفيًا لمصالح أسياده.

بدون مقدمات، عادت الصحف الغربية لتقض مضجع الشاه من جديد، عَقِبَ نَشْر الواشنطن بوست تقريرًا عن الإرهاب في إيران في عدد الثالث عشر من يونيو ١٩٧٣م حَمَّلَت فيه نظام الشاه -الذي نعتته بالمستبد- المسئولية عن هذا الإرهاب، وأنَّ مطالب من سماهم الشاه بالإرهابيين مشروعة، واستشاط الشاه غضبًا من ذلك التقرير، واستدعى وزير بلاطه قائلًا له: "ما رأيك في هذا؟".

فرد عليه (عَلَم) بمكر ليهدئ من روعه: "ما الذي نتوقعه من الواشنطن بوست؟ تلك الجريدة التي تُحَوِّل من موضوع ووتر جيت قليل الأهمية إلى جبل من الفضائح يجب أن نتجاهله ببساطة شديدة".

وافق الشاه على ما قاله (عَلَم)؛ لأنه لاقى هوى في نفسه، فهلوي ككل طاغية يُنْكِر حقيقة استبداده حتى يفاجأ في نهاية المطاف برأسه مُعَلَّقًا على أسنة حِرَاب الشعب الثائر عليه.

بعد أقل من أسبوعين تَلَقَّى نظام الشاه لطمةً جديدةً ودليل إدانة على إجرامه من صحيفة غربية أخرى، كانت هذه المرة الجارديان البريطانية.

أجهد مراسل الجارديان وزير بلاط الشاه بأسئلته حول القمع الوحشي في إيران عام ١٩٧٣م، وسأله سؤالًا مُبَاشِرًا ومُحْرِجًا في آن واحد: "لماذا أنتم حريصون جدًا على منع حرية الكلام والتعبير عن الرأي؟".

فَرَدَّ (عَلَم) في بلاهة: "الشعب لم يعد لديه إلا القليل للحديث أو التعبير عنه؛ فالثورة البيضاء قد مكنته من تحقيق جميع أهدافه".

كَذِبَة جَدِيدة تُضَاف إلى رصيد نظام الشاه العَامِر بالأكاذيب، ورَدٌّ لا ينطلي على شخص مُتَخَلِّف عقليًا، لَكِنَّ نظام الشاه صَدَّقَ كَذِبه حتى عَمِيَت عيناه عن رؤية الحقيقة، وستكون فاتورة ذلك مُكَلِّفَةً جِدًّا.

التقى (عَلَم) في الأول من يوليو ١٩٧٣م الملحق الثقافي البريطاني، واتفق معه على صفقة لشراء دبابات سكوربيون؛ ليعزز بها الشاه ترسانته العسكرية. وفي اليوم التالي أوكل الشاه لـ(عَلَم) مَهَمَّة جديدة.

أثناء تناول (عَلَم) غدائه مع الشاه بمدينة نوشار، طلب منه الشاه إخبار الملحق الثقافي البريطاني بطلب مقابلة سكرتير وزير الدفاع البريطاني خلال زيارته المقبلة لإيران؛ للحديث حول نظم جديدة للأسلحة، مثل: تطبيق أشعة ليزر في خزينة البندقية، وللنقاش حول بناء مصنع للأسلحة في أصفهان، وشراء سفينة حربية.

كان تَعَطُّش الشاه لتطوير ترسانته القمعية يتطلب الحصول على المزيد من الأول، وحتى يتحقق له مراده؛ طلب الشاه من دول منظمة الأوبك رفع أسعار النفط تحت ذريعة تحقيق مكاسب تتناسب مع نفقات إنتاج هذه السلعة الاستراتيجية، وكان الشاه يردد دومًا:

"ستنتهي معجزة النفط بعد خمسة وعشرين عامًا، ويجب أن نفكر من الآن في مصادر بديلة للطاقة".

ماطل الغرب وفي صدارته بريطانيا والولايات المتحدة في تلبية مطالب الشاه النفطية؛ فقرر الشاه أن يعمل بالمثل العربي القائل: "ما حَكَّ جلدَك مثلُ ظُفْرِك".

الحادي والثلاثون من يوليو ١٩٧٣م، أصدر الشاه قانونًا ألغى بموجبه اتفاق الكونسورتيوم بين الحكومة الإيرانية وشركات النفط الثمانية، والذي وُقِّع عقب الانقلاب عام ١٩٥٣م، وأعاد بذلك سيطرة الدولة على ثروتها الاستراتيجية المتمثلة في نفطها، وزاد الشاه أسياده في الغرب من الشعر بيتًا.

وَجَّه الشاه لطمة أخرى للغرب بتوقيعه اتفاقية للتعاون بين إيران والاتحاد السوفيتي في أغسطس ١٩٧٣م أصبحت بموجبه أربعين في المائة من الدفاعات الأرضية الإيرانية تأتي من الاتحاد السوفيتي، كما عَقَدَ رئيس الوزراء عباس هوفيدا اتفاقًا مع السوفييت للتنقيب عن النفط في القسم الإيراني من بحر قزوين.

وتطور الأمر إلى عقد اتفاقيات بين حكومتي البلدين لتصدير الغاز الإيراني لدول جنوب الاتحاد السوفيتي، إضافةً لعقد الاتحاد السوفيتي اتفاقية تجارية مع لإيران في مقابل مساهمة الاتحاد السوفيتي في مشروعات التنمية الإيرانية، ولم يكد يحتفل الشاه بانتصاره حتى اصطدم بالواقع المعيشي المرير لمواطنيه، والذي تسبب فيه بفساده واستبداده.

السابع والعشرون من سبتمبر ١٩٧٣م، وصلت أخبار لـ(أَسَد الله عَلَم) بارتفاع أسعار المواد الغذائية بنسبة أربعين في المائة؛ فأعلم (عَلَم) سَيِّدَه الشاه بما جرى؛ فَرَدَّ عليه بهلوي في حدة وغضب ليبرر ما حدث: "بحق السماء ماذا تتوقع؟ إن كمية اللحم قليلة ولذلك تتزايد أسعارها".

فَرَدَّ عليه (عَلَم): "ولكن لماذا تكون كميتها قليلة؟ بصفتي خادمًا لجلالتك يجب أن أعرفك درجة استياء الشعب من هذا الموضوع، بدون شعب تلعب العوامل الدولية دورًا في ارتفاع الأسعار، ولكن اللوم الأكبر يقع على عاتق حكومتنا وخاصة مجلس التعاون الذي لا يفعل شيئًا سوى استغلال المهام التي تؤول إليه".

لم يعجب كلام (عَلَم) الشاه الذي نهره بقوله: "هذا هراء، أنت خارج الموضوع ولا تعرف أيَّ شيء عما يدور".

فما كان من علم إلا أن أجابه في لين: "بدون شك جلالتك على حق، ولكن الحقيقة الواقعة أن الشعب غير راضٍ عن ذلك، وأنا أرى ذلك بوضوح، وقد يؤدى لمخاطر جسيمة لكن جلالتك لك حرية التصرف".

ولم يَرُد الشاه؛ لتيقنه من صحة كلام (عَلَم)، لَكِنَّه الكِبْر ليس إلا.

في عشاء ذلك اليوم، تحدثت الأميرة أشرف عن تركة الأمية الثقيلة التي تعاني منها البلاد بالرغم من مرور أحد عشر عامًا على الثورة البيضاء، وامتنع (عَلَم) عن التعليق أو النصح، بعد أن يَئِس من قبول آل بهلوي للنصيحة، وآثر أن تجني العائلة ثمار استبدادها المرة.

في خطوة مستفزة لرجال الدين رأى فيها بهلوي ترسيخًا لعلمانيته التي أسست لها ثورته البيضاء، أعلم الشاه وزير بلاطه بأنه أصدر أمرًا لرئيس وزرائه بمنع ارتداء طالبات المدارس الثانوية الإسلامية الحجاب داخل المدرسة. فعلًا، من شَابَه أباه فما ظلم!

عَاودَ الشَّاه خطب ود الأمريكيين مُجَدَّدًا، فعقد صفقةً لشراء ألفين وثلاثمائة صاروخ أرض جو موجه من طراز مافريك، بعقود تضمنت مشاركة أكبر من الصناعة الإيرانية في إنتاج وتطوير الصواريخ.

على الرغم من ذلك، ظل موضوع رفع أسعار النفط مثار شَدٍّ وجَذْبٍ بين أعضاء الأوبك، وما هي إلا أيام معدودة حتى تحقق طلب الشاه رغمًا عن أنف منتجي ومستهلكي النفط، ليس في الأوبك فقط ولكن في العالم بأسره.

قطعت الدول العربية المنتجة للنفط صادراتها عن الولايات المتحدة وأوروبا وبقية الدول الداعمة لإسرائيل، تزامن ذلك مع شن مصر وسوريا حربًا مفاجئةً على إسرائيل في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، وتسببت هذه المقاطعة في شَلِّ الاقتصاد الغربي، ورفع أسعار النفط لمستويات قياسية لم يتصورها الشاه في أكثر توقعاته تفاؤلًا.

فوجئ الشاه بما حدث، وقرر بطبيعته الانتهازية ضرب عصفورين بحجر واحد:

العصفور الأول: هو جَنْي الأرباح الطائلة من تصدير النفط كما أراد، بعد أن ملأ الفراغ الذي خَلَّفَه قطع إمدادات النفط العربية، وقد عَبَّر أحد سفراء إيران عن موقف حكومة بلاده بقوله: "لم نقبل أبدًا بحظر النفط على أي بلد، فنحن لم نؤمن باستخدام ذلك السلاح".

وأبقى بهلوي كذلك على إمداداته النفطية للدولة العبرية طوال فترة الصراع، بل وأمد الجيش الإسرائيلي بما يحتاجه من أسلحة، خاصةً مدافع المورتر التي كانت إسرائيل في حاجة مَاسَّة إليها.

أما العصفور الثاني: فهو تحسين العلاقات مع الجوار العربي عبر مد يد العون لهم، ففي الأيام الأولى للحرب طلب السادات من صديقه الإيراني إمدادات من النفط الخام، ولَبّى له الشاه مطلبه بشحنة ضخمة وصلت القاهرة بعد أربع وعشرين ساعة.

كما قَدَّم مساعدات للسعودية شملت طائرات وطيارين إيرانيين لحل مشاكل التموين، وقد نقلت هذه الطائرات كتيبة سعودية لمساعدة القوات السورية في الجولان، وأحضرت هذه الطائرات الجنود السوريين الجرحى لتلقى العلاج في طهران.

وذهب الشاه في دعمه للعرب أبعد من ذلك، ففي الحادي عشر من أكتوبر أصدر أوامره لنائب وزير خارجيته أحمد ميرفنديرسكي بالإذن لخمس طائرات سوفيتية تحمل قطع غيار بالمرور في المجال الجوي الإيراني للوصول إلى دمشق وبغداد، وقد تركت هذه التصرفات انطباعًا طيبًا لدى العرب، غَيَّرَ ولو جزئيًا نظرتهم السلبية إلى الشاه.

وقد كان الشاه خبيثًا في اتباعه سياسة مزدوجة تجاه الطرفين المتصارعين:

فلم يساعد العرب للدرجة التي تسمح لهم بالانتصار على إسرائيل ومن ثم التفرغ للتصدي لمخططاته التوسعية في بلادهم، ومن ناحية أخرى لم يمد يد التعاون بالكامل لإسرائيل فيزداد العرب عداءً على عدائهم القديم له.

كما أراد الشَّاه كذلك مَنْع التَّمَدُّد السوفيتي في الخليج العربي والشرق الأوسط، عَقِبَ أن استغل السوفييت حالة الحرب لزيادة نفوذهم في هذه المنطقة الحيوية، وأراد بهلوي كذلك منع سيده الأمريكي من الوجود عسكريًا في الخليج عبر إقامة القواعد العسكرية حتى لا يُقَيِّد هذا الوجود طموحه التَّوَسُّعِيّ في الخليج.

لَكِنَّ الشاه ظل على الرغم مما فَعَلَه خلال الحرب مُتَمَتِّعًا بغروره الفارسي وتعاليه على العرب، ففي احتفالٍ أقيم بمناسبة نهاية شهر رمضان، ألقى أحد الحضور كلمة عبر فيها عن التضامن الإيراني مع أشقائهم المسلمين، فانتفض بهلوي غاضبًا وقال: "فليذهب إخواننا المسلمون إلى الجحيم، إنهم ألد أعدائنا".

ثم استطرد بنفس الغضب قائلًا: "أنا مسلم مُتَعَصِّب، لكن ذلك لن يغير من نظرتي للعرب".

وتَرْجَمَ الشاه هذا القول الفَظّ إلى فعل عندما التقاه السفير السعودي في طهران الذي طلب منه وقف إمداد إسرائيل بالنفط، وإغلاق المجال الجوي في وجه طائرات العال الإسرائيلية، فَرَدَّ عليه (أَسَد الله عَلَم) نيابةً عن الشاه بقوله: "إغلاق المجال الجوي معناه إعلان الحرب على إسرائيل، أما من يمد إسرائيل بالنفط فهي شركات النفط وليس نحن".

لَكِنَّ الشاه أبقى على شعرة معاوية مع جيرانه العرب، فناقش مع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر في التاسع من نوفمبر ١٩٧٣م خطة فَضّ الاشتباك بين مصر وإسرائيل، حيث عَوَّلَت الولايات المتحدة على نفوذ الشاه في الضغط على المصريين للقبول بشروط الاتفاقية المجحفة، وعلى الرغم من وعد الشاه ببذل

قصارى جهده في تمرير الاتفاقية، إلا أن إسرائيل بدأت كما دول الغرب تتوجس من سياسات الشاه وتعيد حساباتها بشأنه.

شعر الشاه بالرضا؛ لتعاظم دوره الإقليمي والدولي، لَكِنَّ شيئًا واحدًا كان يُؤَرِّقُه: مصير عرش الطاووس من بعده.

فقد كان السرطان ينتشر في جسده انتشار النار في الهشيم، لذا وجب عليه حماية ملكه من السقوط.

لذلك عقد الشاه اجتماعًا في الثاني والعشرين من نوفمبر ١٩٧٣م، ضَمَّ رئيس الوزراء ووزير البلاط وقادة الجيش ومسئولي البرلمان، حيث أعلن الشاه عن تشكيل مجلس وصاية تقوم عليه الشهبانو فرح ديبا حتى يصل ولي العهد الأمير رضا إلى السن التي تسمح له بِتَوَلّي السلطة، وألقى على مسامعهم خطبةً شَدَّدَ فيها على مهام الشاه، وضرورة خضوع المؤسسة العسكرية لقراراته، وبعد عدة أيام كان الشاه على موعد جديد من الاحتجاجات على نظامه.

اندلعت مظاهرات طلابية في كلية الزراعة يومي السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٣م تَصَدَّى لها الأمن والسافاك بشراستهما المعهودة، واعتقلوا من الطلاب من اعتقلوا، واستاء الشاه مما جرى وغَضِب؛ لأنه رأى أنَّ الطلبة لا يبدون أيَّ اهتمام بما أسماه التقدم العظيم الذي أحرزته الدولة. مجددًا يؤكد الشاه أنه -كأي طاغية ممن حَفَلَت بهم صفحات التاريخ- يرى في نفسه مَنْ يملك الحقيقة المطلقة وعلى غيره أن يسير وراءه دون تفكير، وصدق الله العظيم إذ يقول: "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد".

تعقدت الأمور لدى الشاه أكثر فأكثر مع ازدياد موقف سيده الأمريكي ريتشارد نيكسون حَرَجًا في فضيحة ووتر جيت، وتلويح أعضاء حزبه بالتخلص منه؛ حتى لا يتسبب في خسارتهم للانتخابات الرئاسية القادمة، وخَشِيَ الشاه من أن يتغير سلوك جيرالد فورد نائب نيكسون تجاهه، ومرة أخرى نشط احتجاج الطلبة ضده، فاتهم بهلوي السوفييت بالوقوف خلف هذه الاضطرابات، وأوعز إلى أجهزة الأمن باتخاذ إجراءات صارمة.

استمرت الاضطرابات في جامعة طهران لما يربو على الأسبوعين، واشتكى الشاه من عدم قيام السلطات الجامعية بأيِّ مجهود لوقف ما أسماه الاضطرابات الحالية، وقال: "إن الشعب يرضى بأقل القليل، لا يوجد أي معنى للالتزام القومي والمعنوي".

وقَدَّم له (أَسَد الله عَلَم) النصيحة قائلًا: "لا أحد غيرك يمكنه أن يصلح الشأن العام، لكن عن طريق الرقة والحب؛ فلن يتحقق شيء عن طريق الأوامر".

في ذلك العام علمت الشهبانو فرح ديبا للمرة الأولى بمرض الشاه الخبيث عقب فحص أجرى له خلال وجوده في جزيرة كيش، وهكذا بطل عجبها من اجتماع الشاه وطلبه تكوين مجلس وصاية إذا ما أصابه مكروه، لكن هل أعد الشاه العُدَّة للقاء رَبِّه وتاب عن أفعاله؟

على الإطلاق، فقد استمر الشاه وكلابه المسعورة في غَيِّهم، فاعتقل المعارض البارز د/ علي شريعتي، ونال نصيبه من بطش السافاك، وأُغْلِقَ مركز حسينية الإرشاد الذي أنشأه قبل أربع سنوات، واعتُقِلَ عدد من المداومين على محاضرات شريعتي في خطوة رآها الشاه استعادةً لهيبته التي هزتها المظاهرات.

انتهي عام ١٩٧٣م وقد حقق الشاه أرباحًا خياليةً من النفط وصلت إلى تسعة عشر مليار دولار سَدَّدَ بها ديون إيران الناجمة عن احتفالات برسوبوليس، وأصبحت إيران دولةً دائنةً بعدما كانت مدينةً، لَكِنَّ الشاه بقي في وادٍ وشعبه وادٍ آخر.

فبدلًا من تحسين الوضع المعيشي الكريم لشعبه، استمر رضا بهلوي في شراء السلاح بشكل جنوني؛ حيث بلغت مشتريات السلاح أربعة مليارات وستة وتسعين مليون دولار، بزيادة ملياري دولار عن العام السابق، بينما الاقتصاد ينهار يومًا بعد يوم وعامًا بعد آخر، والشاه يواجه مأزقًا مع معارضيه الذين بدأوا يكسرون حاجز الخوف الذي صنعه قبل عقدين من الزمن.

خرج الشاه مجددًا عن النص، وقارع الغرب نِدًّا لند وليس تابعًا ومتبوعًا، فعقد مؤتمرًا صحفيًا في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣م، عَنَّف فيه الدول الغربية بقوله:

"يجب على الغرب أن يتعلم كيف يعيش داخل حدود الموارد المتاحة له، ويبحث له عن مصادر أخرى للطاقة غير النفط، وإذا كان الناس في الغرب يودون أن تستمر مجتمعاتهم في إفراز الهيبز، فليفعلوا ذلك على حسابهم وليس على حساب دولة مثل إيران، الغرب يريد تصدير فكره المنحرف المسمى بالديمقراطية لنا لكن ذلك لن نقبله".

رغم نبرة العداء للغرب فلم يتوقف الشاه عن التزود بالسلاح الأمريكي، فقد عاد الشاه مُجَدَّدًا لعقد صفقات السلاح مع الولايات المتحدة، واشترى طائرات من طراز توم كات مع نظام صواريخ فونيكس المتطور بقيمة مليار وتسعمائة مليون

دولار، وقد عَلَّقَت نيويورك تايمز على هذه الصفقة الضخمة بقولها: "إن الشاه أصبح يشترى الطائرات الأمريكية بصورة أسرع من إنتاجها".

ثم اشترى في وقت لاحق طائرات من طراز أوريون بي ثري للاستطلاع البحري بثمانية وتسعين مليون دولار، وضم هذه الطائرات لسلاح البحرية، واستغَلَّها في عمليات المسح الجوي للبحرية الإيرانية لبلدان الخليج العربي وما ورائها.

كما اشترى من بريطانيا منظومة صواريخ رابير، إضافةً لعدد من سفن البحرية، واشترى من فرنسا زوارق للصواريخ بمبلغ سبعة وخمسين مليونًا وستمائة ألف دولار.

عادت المظاهرات تُؤَرِّق الشاه مجددًا، وفي اجتماع جَمَعَه بـ(أَسَد الله عَلَم) في الثامن من مارس ١٩٧٤م، اشتكى له الشاه من تصاعد مظاهرات الطلبة، وكعادته سَفَّهَ المحتجين، ووصفهم بالقِلَّة من الطلبة الذين يتمردون على حكمه رغم حَلِّ أغلب مشكلاتهم، فَرَدَّ عليه (عَلَم) بحكمته المعهودة: "بعضهم يصرون أن يكونوا شهداء، والبعض الآخر يرسم مقارنات بين نظامنا السياسي والنظام الديمقراطي في أوروبا".

رد الشاه على (عَلَم) في استنكار وغضب: "ما الذي أحرزه النظام الديمقراطي في أوروبا؟ كثير من هؤلاء المخربين تمولهم القوى الخارجية".

نفس الأسطوانة المشروخة التي رددها الشاه في السابق يعيد ترديدها الآن، دون محاولة منه لمعالجة هذه الاحتجاجات جذريًا، وأراد (عَلَم) إيصال الحقيقة لسيده فقال: "إذا حققنا كل التقدم الماديّ فلا يجوز للشعب أن يسخط،

وعلينا أن نعترف بصدق بسلبيات نظامنا، وننظر إلى هؤلاء المخربين نظرةً مختلفةً".

لَكِنَّ الشاه حَزَمَ أمره وقال لـ(عَلَم) في لهجة آمرة: "أخبر رئيس جامعة طهران أنني أتوقع منه ومن طَلَبَتِهِ أن يكونوا مخلصين وممنونين لهذه الدولة، ونفس الشيء بالنسبة إلى أيِّ طلبة في أيّ مكان آخر".

كان هذا أمرًا صريحًا من الشاه بالخنوع، وإلا فمراكز السافاك كفيلة بإعادة الأمور إلى نصابها، بل وترحيل المعارضين إلى الدار الآخرة إذا لزم الأمر، لَكِنَّ شرارة الاحتجاجات تخطت الحدود الإيرانية.

أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية تقريرًا أشارت فيه إلى اعتصام بعض الطلبة الإيرانيين الدارسين في أوروبا بسفارات بلادهم في المجر والسويد وألمانيا، مطالبين بمزيد من الحريات السياسية في إيران، أخبر (عَلَم) سيده بما جاء في التقرير مبلغًا إياه مخاوفه من خروج الأمور عن السيطرة، فَرَدَّ عليه الشاه هازئًا: "لا عليك، إنه موضوع تافه".

لم يَدُر بِخَلَد الشاه -وهو يُعَقِّب ساخرًا على هذا الخبر- أنه سَيَعَضُّ أصابعَ النَّدَم على ما فعله في هذا اليوم، وسيشترى الأسف يومًا ما بأغلى الأثمان.

تدهورت حالة الشاه الصحية بشكل مفاجئ في التاسع من أبريل ١٩٧٤م أثناء وجوده في جزيرة كيش، وبعد أن وقع طبيبه الخاص الكشف الطبي عليه طلب من وزير البلاط الاتصال بأخصائي أمراض الدم الفرنسي العالمي جين برنار؛ للوقوف على تطور حالته الصحية.

فحص برنار الشاه في وقت لاحق، وبعث بالعينات التي حصل عليها إلى فرنسا لفحصها، وبعد فترة أُرْسِلَت التقارير التي تفيد بأن حالة الشاه مطمئنة، لكن الشاه كان يعلم في قرارة نفسه أن الموت -والموت وحده- هو ترياقه الشافي من دائِهِ العُضَال، وبعد فترة تَفَجَّرَت أزمة جديدة لتزيد من حرج موقفه مع شعبه.

الثالث من يونيو ١٩٧٤م، أبلغ (عَلَم) الشاه بوجود أزمة خبز في البلاد؛ فانزعج الشاه مما سمعه، وأمر الحكومة باتخاذ إجراءات صارمة ضد المخالفين، لكنها لن تكون آخر الأزمات ضد حكم الطاغية البهلوي.

عادت مخاوف الشاه من السوفييت مجددًا بالرغم من تحسن علاقاته بهم في العام السابق، فطرد مديرة القصر الامبراطوري بعد معلومات وردت لـ(أَسَد الله عَلَم) من السفير البريطاني تفيد بعلاقتها مع المخابرات السوفيتية، وقرر الشاه أن يعيد تلميع صورته المهترئة في عيون الشعب.

خلال مؤتمر عقده الشاه في رامسار بين الأول والثالث من أغسطس ١٩٧٤م، عرض الشاه منجزات الثورة البيضاء بعد اثني عشر عامًا على انطلاقها، وهي:

ارتفاع نسبة من يجيدون القراءة والكتابة إلى ستين في المائة من السكان بعد أن كانت خمسة وعشرين في المائة في ١٩٦٢م، وارتفع عدد المدارس إلى إحدى وعشرين ألفًا بعد أن كانت سبع آلاف عام ١٩٦٢م.

وعلى صعيد المشروعات الكبرى، أنشأ الشاه ميناء الخرج لتصدير النفط وكان الأكبر في العالم في وقتها، وكذلك مصنعًا للألومنيوم في آراك، ومجمعًا للكيماويات في شيراز وعبدان وسدين على نهري كارون ودز، ولم ينس الشاه بالطبع الإشارة للرفاهية التي يعيشها المواطنون تحت حكمه الرشيد!

وكأن بهلوي يعيش على كوكب آخر، وكأن احتجاجات لم تخرج ضده، لَكِنَّه الإنكار الذي يؤدي بصاحبه للمهالك.

أُسْقِط في يد رضا بهلوي بعد أن قدم ريتشارد نيكسون استقالته للكونجرس الأمريكي تحاشيًا لإقالته من قبل النواب، وأقسم نائبه جيرالد فورد اليمين رئيسًا للولايات المتحدة، وأرسل له الشاه برقية أوصلها إليه (أَسَد الله عَلَم).

في اليوم التالي اتصل السفير الأمريكي بـ(عَلَم) يطلب منه الحضور لتسليم رسالة للشاه من الرئيس الأمريكي الجديد، وكان رد (عَلَم) بالإيجاب مؤكدًا على أهمية العلاقات بين البلدين.

واصل الشاه مواقفه الداعمة للعرب -ومصر تحديدًا- في نزاعهم مع إسرائيل، وأبدى وساطةً فَعَّالةً لوقف إطلاق النار، وأوقف صفقات التسليح والمشروعات العسكرية مع إسرائيل، وأعلن غير مرة أن الحل الوحيد أمام إسرائيل هو عقد اتفاق سلام مع العرب لا احتلال المزيد من أراضيهم، بدأ الإسرائيليون منذ ذلك الحين ينظرون إلى الشاه بعين العداوة، ويضيفون إلى سقطاته بحق الغرب وحقهم حتى يحين موعد الحساب.

تتابعت مشتروات الشاه العسكرية من العم سام، فاشترى الشاه طائرات مروحية وطائرات النقل وطائرات السلاح وطائرات الاستطلاع والتشويش الإلكترونى وطائرات إمداد الوقود وطائرات الإنذار الجوي المبكر (الأواكس)، على الرغم من أنَّ مقتضيات الأمن القومي الإيراني لم تكن في حاجة إلي كل هذا الكم من التقنيات المتطورة، لَكِنَّه جنون القوة الذي سيطر على عقل الشاه حتى وصل حد السَّفَه.

نال سلاح البحرية حصته من سَفَه الشاه التسليحي، فَعَقَد الشاه صفقات أسلحة بحرية جديدة شَمِلَت ثلاث غواصات أمريكية من طراز تانج، وأربع مدمرات من طراز سبراونس، كما أضحى أربعة وسبعون ألف رجل من الدرك والحرس الامبراطوري مزودين بطائرات خفيفة ومروحية.

في مقابل ذلك استمر تدهور الاقتصاد الإيراني، فعلى الرغم من كون إيران بلدًا زراعيًا فقد باتت تستورد سبعين في المائة من احتياجاتها الغذائية، وأصبح قطاع الزراعة الذي يعمل فيه ثلاثون في المائة الإيرانيين لا يساهم سوى بخمسة عشر في المائة من مجموع الدخل القومي، وظل الشاه يتعامى عن احتياجات شعبه الأساسية، بل ويواصل إهدار أمواله للحفاظ على ملكه الفاني.

أبرم الشاه عَقْدًا تجاريًا جديدًا مع الولايات المتحدة وصلت قيمته لخمسة عشر مليار دولار وصفه هنري كيسنجر وزير الخارجية وقتها بأنه أضخم من مشروع مارشال إبَّان الحرب العالمية الثانية، إضافةً إلى عقد آخر لشراء ثماني محطات نووية لتوليد كهرباء بعشرين مليار دولار إضافةً إلى عشر محطات مماثلة من فرنسا وألمانيا.

كما دفع الشاه عشرات الملايين من الدولارات على مدى سنوات طويلة لأعضاء الكونجرس الأمريكي عبر السافاك لشراء ذممهم، وذلك في شكل هدايا لأعياد الميلاد؛ حتى لا يفتحوا عليه أبواب جهنم إذا ما قرروا فتح تحقيقات فيما يخص مشترواته من السلاح واستخداماتها، إضافةً لسجل حقوق الإنسان الأسود في عهده.

ووصلت قوة نفوذ الشاه لتعيين زوجة السيناتور الجمهوري جافتس مديرة للعلاقات العامة لشركة الخطوط الجوية الإيرانية بتوصية شخصية من الشاه، وسبق هذه الخطوة تبرع الشاه لحملة نيكسون الانتخابية بملايين الدولارات، وهكذا طَغَت المصالح على المبادئ في علاقة الشاه بأمريكا.

تضاعفت كذلك ثروات أفراد العائلة المالكة خلال ذلك العام، خاصَّةً مع الطفرة النفطية عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وتضاعف كذلك عدد الفَسَدَة المستفيدين من نظام الشاه، وتكدست ثرواتهم في بنك ميللى إيران، وكان أركان نظام الشاه من كبار عملاء هذا البنك مثل:

منوشهر توفانيان وزير الدفاع، إيراج وحيدي وزير الطاقة، رضا قطبي رئيس الإذاعة والتليفزيون وابن خال الشهبانو فرح بهلوي، عبد الله رياض رئيس مجلس النواب، شيخ الإسلام زاده وزير الصحة، أردشير زاهدي سفير إيران في واشنطن، منوشهر تسليمي وزير التجارة، هرمز غريب رئيس التشريفات الإمبراطوري، نعمة الله ناصري رئيس السافاك.

لكن الشاه ما فتئ يتباهى بإنجازاته التي حققها في انفصال تام عن وضع شعبه المزرى، وقد ظهر ذلك جَلِيًّا في حوار أجراه في ذلك العام مع محطة تليفزيونية أمريكية، عندما سأله المحاور عن رأيه فيما يردده معارضوه سواء في إيران أو الغرب أو بقية بلدان العالم بشأن تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد، فأجاب بهلوي في لا مبالاة أَلِفَها: "جوابي الوحيد: من يهتم؟ يمكنهم قول أي شيء يريدون، بلادي تحقق نموًا ثابتًا قدره أربعون في المائة، فيما بلادهم في الحضيض، لذلك يمكنهم قول أي شيء يريدون".

فعاجله المحاور بسؤال خبيث قال له فيه: "ما الحاجة إلى وجود ما يصفه الناس بالحكم الملكي خصوصًا في هذه المرحلة من التطور والازدهار في إيران؟".

فَرَدَّ عليه الشاه في ثبات: "اعتادت البلاد الحكم الملكي منذ ثلاثة آلاف عام، ونحن لا نجبر الناس على القبول به، بل هم يعتبرونه شيئًا طبيعيًا، والجميع يقبل به. بالطبع يوجد لدينا بعض الاستثناءات إلى جانب وجود منظمات إرهابية يمكنها أن تُشَكِّل خطرًا، لأن رصاصةً واحدةً كافية لأن تقتل".

اشتكى الشاه مجددًا من تضخم طحاله وطلب من وزير بلاطه الإرسال في طلب جين برنار مُجَدَّدًا، حضر الرجل في الثامن عشر من سبتمبر ١٩٧٥م، وأخذ عينة للفحص المجهري؛ للوقوف على صحة الشاه العليل.

أطلق الجنرال خاتمي قائد القوات الجوية صيحة تحذير للشاه بأنه يشترى طائرات بأكثر مما يحتاج، وسيؤدي ذلك إلى تلفها إذا ما كدست في المخازن دون استخدام خاصة مع عدم وجود خبراء يدربون الطيارين الأمريكيين على التعامل معها، ووعد الشاه خاتمي بتلبية طلبه.

ظهرت نتائج الفحص المجهري الذي أجراه جين برنار لعينة من طحال الشاه المسرطن، وبالرغم من أن نتائج الفحص كانت مطمئنةً للشاه، إلا أن طبيبه الفرنسي أشار عليه بالعلاج في مستشفيات الولايات المتحدة، وخلال تلقيه العلاج هناك علمت إدارة فورد بأمر مرضه، فبدأت تفكر في بديل لعميلها الفارسي، خاصة مع علمها أن السرطان مرض عُضَال، وعليها توفير خليفة للشاه يحمي مصالحها في إيران.